

كتاب الجمهورية

القصص في القرآن الكريم

الدكتور
محمد حسن الدالى

كتاب الجمهورية

رئيس مجلس الإدارة
ورئيس التحرير
سمير رجب

رئيس التحرير التنفيذى
د. فتحى عبدالفتاح

ديسمبر ٢٠٠٠

إهـــــداء ٢٠٠٩
الدكتور المرحوم/ محمد فتحى احمد محمد سيد
جمهورية مصر العربية

دار «الجمهورية» للصحافة

كتاب الجمهورية

القصص في القرآن الكريم

د. محمد حسن الدالى

الاشراف الفنى :

مصطفى كامل

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى جعل القرآن الكريم مرجعاً شافياً وافياً لهذا البحث، والصلاة والسلام على رسول الله النبى الأمى الذى أولى مجامع الكلم وأرسل للناس كافة بشيراً ونذيراً وهدى للمتقين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه عدد كمال الله وكما يليق بكماله.

وبعـــــد..

فقد اتسعت دائرة العلوم القرآنية فى العالم المعاصر، واستثمرت الدراسات الأدبية واللغوية والعلمية، حتى أصبحنا لا نصبح ولا نمسى حتى يطالعنا بحث جديد أو دراسة حديثة فى هذه المجالات.
وبحثنا هذا قد اختار شريحة أدبية فنية، أرجو ان نضيف لبنة فى هذا الصرح المنيف، لأن تربية الذوق الفنى والملكات الجمالية لا تؤتى ثمارها بالتجريد والتعميم والتقعير إلا إذا دعمت بالنصوص والنماذج والمقارنة والتطبيق.
والله أسأل أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، ويثقل به ميزاننا وينفعنا به فى الدنيا والآخرة.

د. محمد حسين الدالى

رئيس قسم اللغة العربية بجامعة صنعاء سابقاً

منهج القصص القرآنى

وحدة المنهج

إن المنهج القصصى فى القرآن الكريم منهج جامع شامل متكامل.. فإذا كان الباحثون ـ الآن ـ يعينون نوعية المنهج الذى يسلكونه فى بحوثهم الأدبية والعلمية، فإن مرد ذلك إلى المنهج القرآنى ـ فمنه تعلمنا كيف نختار منهجنا، وكيف نصوغ أسلوبنا لموضوعاتنا ـ وكيف نحقق أصولها ونوثقها، وكيف نرجع إلى مصادرها الأصلية ، ومراجعها التابعة لها.، ومن ثم يعم النفع وتتحقق الفائدة.

إن المتبع لهذا المنهج يعرف كيف ينسق افكاره، وكيف يسلسلها حتى تصير محكمة ومنطقية، مشيدة البنيان، متأصلة الأركان.

وإن الدارس لهذا المنهج، أو المتأدب بمأدبته، والمتذوق لأدبه، سيصبح فى يوم ما ـ محللا معللا ناقدا ملتزما، متكيفا مع دينه ومجتمعه، وجامعا بين عالمين: عالم الطين وعالم الروح، لانه يجد بغيته فى قاموس الألفاظ، ويشبع رغبته بإثراء المعانى، وتتفتح بصيرته بتشعب الأفكار، ويتفتق ذهنه بالحكم البالغة، والأمثال البليغة ، والتى لم تجر العادة بأن تصدر فى كثرتها وإعجازها وشرفها من مخلوق.

لذلك كـان مطلب كـل أديب ومـتـذوق، وملجـأ كل مـفكر وفيـلسوف، وحصـن كل فقيـه وعالـم، ومـجال كل باحث ونـاقد، فعالـم الفيزياء والكيمـياء إن قصدا الطبـيعة وأسرارها هشت لـهما وبشت، والمفكر والفـيلسـوف إن راما قواعـد المنطق وأصـول علم الكلام لمساها فى قـضـاياه، وعـالما الأرصـاد والأفلاك إن ابـتغـيا الشـموس والنجـوم والأبراج والأقـمار، ألفيـا ذلك كله فى علوم القـرآن، والباحث عن الطاقـة الأرضيـة والشمـسية ، يـجد الأرض والبـحـار والآفاق مـسـخـرة ممهدة لهـذا الإنسـان، ورجل التـاريخ العـاشق للأخبـار، إن غـمضـت عليه حـوادث الليل والنهـار، ولـم تسعـفه المشـافهـة والمثاقلة او الرواية لجـأ إلى مصدرهـا فى قصص القرآن، والأدباء والبلغاء وأرباب الفـصاحة والبيان يقتـبسون طرق التناسب والتنـاسق والتـواؤم والائتلاف، فى جـمـيع آياته من غـيـر انشـقاق واختـلاف؛ ذلك لأن المنهج ربانى من عند الله، (ولـو كان من عند غيـر الله، لوجدوا فيه اخـتلافا كثيـرا) . «٨٢:النساء» (قل لئن اجتـمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هـذا القرآن، لايأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) .«٨٨: الإسراء».

إنه معين لاينضب، وبحر لاينفد (قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى، لنفد البـحر قبل أن تنفـد كلمات ربى، ولو جـئنا بمثله مددا). «١٠٩ : الكهف».

(ولو أن مافى الأرض من شجرة أقلام. والبـحر يمده من بعده سبعة أبحر مانفدت كلمات الله، إن الله عزيز حكيم). «٢٧ : لقمان».

ليس فى الآيـتين تناقض، وليـسـت إحـداهمـا تكـرارا للأخـرى، فالصـورتان تكمل إحداهمـا الأخرى، ويتضح ذلك، لو جـعلنا من الآيتين آية واحدة، نجـد الأبحر قد نفدت، ومانفـدت، كلمات الله، ونجد كلمات الله لانفاد لها، ولو مد البـحر، لابحر واحد مثله، بل بسبعة أبحر» (١).

وهذا هو السـر فى اقبال الـعامة والخـاصة على تلاوته، والـشرقى والغربى على قـراءته وترجمته، وحرص الجـميع على تفهم مـعانيه وادراك مقاصده، كل وفهمه وكل وإدراكـه، وكل وحاجته، الجميع يجـدون غذائهم ومـشربهم. عـقلانيـا أو روحيـا أو وجدانيـا، على حـسب مابيـنهم من فروق فـردية، فـالبـون بينهـم شـاسع والفجـوة عميـقة، والطبائع مـتباينة، والبيـئات مختلفـة، ولكن الذكر الحكيم يجمعهم على مائدة يتأدبون بأدبـه ويتمتعون بمأدبته، عن على رضى الله عنه ـ قال:

سمعت رسول الله ـ صلى الله عـليه وسلم ـ يقول: «ستكون فتن كقطع الليل المظلم، قلت يارسول الله وما المخرج منها؟ قال: كتاب الله تبـارك وتعالـى، فيـه نبأ من قـبلكم، وخـبـر مابعـدكم، وحكم مابينكم، هو الفـصل ليس بالهزل، من تركه مـن جبار قصـمه الله، ومن ابتـغى الهدى فى غـيره اضله الله، هو حـبل الله المتين، ونوره المبين، والذكر الحكيم، وهو الصراط المسـتقيم، وهو الذى لاتزيغ به الأهواء ولاتلتبس به الألسنة، ولاتـتشعـب معـه الأراء، ولايشبع منه

---

(١) التفسير القرآنى للقرآن: المجلد السادس ص٥٨٥ عبدالكريم الخطيب

العلماء ولا يمله الأتقياء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولاتنقضى عجائبه، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا: (إنا سمعنا قرآنا عجبا) من علم علمه سبق، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم».

فالمنهج - وإن كان غرضه الأساسى شرح مبادئ الدعوة الإسلامية وتثبيت عقيدة التوحيد فى نفوس المسلمين، وتوكيد الدلالة على صدق نبوة محمد، وأنه مبلغ عن ربه، وأن القرآن الكريم تنزيل من رب العالمين - لايقدم ذلك فى نظرية مجردة عقلية منطقية فحسب، بل يقدم منهجه على الفكر والنظر والتدبر، ووسيلته فى تحقيق ذلك «إلباس» المعانى المجردة الذهنية لباس المحسوس الذى يدرك بحاسة أو أكثر من حاسة»(١) حيث يعمل المرء وسائله السمعية والبصرية وصبغته التى اصطبغ عليها، وتصبح العقيدة عنده حية دافقة متدفقة، دافعة لتحقيق مدلولها العملى والسلوكى، ومن ثم لاتستهويه الشياطين، ولا يخلد إلى الأرض.

والمنهج يقوم على تحليل النفوس وتصويرها فى حالات شتى: من حيرة وقلق، وعجز ونفاق وخوف وفزع، ومكر وخبث، ويقابلها بصور النفوس الذكية المطمئنة العاقلة الواعية، المجبولة على تقوى الله وحب الخير، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ويتيح الفرصة لخيال المتلقى أن يتملى ويتصور ويرسم الهيئة ويجسمها فى مخيلته كيفما يشاء.

ولما للقصص من أثر فعال فى النفوس، وجذب لانتباهها، وتمهيد

(١) فى ظلال القرآن المجلد الثالث ص١٣٩٩ ، سيد قطب

لما يعـرض، وتشويق وتلهف لمعـرفـة النهاية، وارتيـاح لحل العقـدة والصـراع، وحب وتشـوق للاسـتطلاع، لجـأ المـنهج إلى الأسلوب القصصى، فالتقى الفرض الدينى بالفرض الفنى؛ لأن القصة صورة من صور البيان العربى، ووسيلـة من وسائل نشر الدعوة، فضلاً عن أن لكل قصـة شخصيـة مميزة، وروحاً متـفرداً، يعيش معـها المتلقى، كما لو كان يعيش عصرها، ويشارك الأحداث والحوار والصراع... فـفى القـصـة القـرآنيـة ثروة من الحـقـائق والمـعـارف، وثورة من التصورات والإيحاءات والتوجيهات، وثروة من الأسس التى ينبغى أن تقوم عليـها المعاملات، وثروة من المـبادىء الصحيـحة التى تبنى الأوطان وتشيد المجـتمعات، وثروة من علوم البلاغة ومـصطلحاتها الحـديثـة - علم المعـانى، وعلم البـيـان، وعلم البـديع - لقـد بعث القـصص القرآنى فـى هذه العلوم الحيـاة بعـد ركود - لقـد بث فى التشبيهـات والاستعارات والكنايات التصوير والتخـيل والتجسيم والتجسيد حتى قارب المجاز الحقيقة، ونهج الإعجاز طريقه.

وفى القـصة الـقرانيـة ثروة من الموسـيـقى المهمـوسـة والمجهـرة، والإيقـاعات الظاهرية والداخليـة.. إنها - كـما قلنا - تـتراوح بين الشدة والرخـاوة، وتتفـاوت بين التفـخيم والتـرفيق، وتتـهادى بين التـفـشى والتكرير، إنهـا الموسـيـقى فى أعلى طبـقـاتهـا الصـوتيـة والكلامية واللفظية والروحية والنفسية والوجدانية.

وليس المنهج منهج تاريخ يتعـرض لعنصرى الزمان والمكان، وإنما يتخذ من أحـداث التاريخ ووقائعه مـجالاً للعبرة، ومـبدئاً للدعوة،

فهو يخرج من الدائرة التاريخية المجردة إلى الدائرة التاريخية الموضوعية الفنية والوجدانية (لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب، ما كان حديثاً يفترى، ولكن تصديق الذى بين يديه - وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون). «١١١: يوسف».

وذلك لأن المنهج يأخذ من القصة ما يحقق الغرض الدينى، دون اعتبار إلى تاريخ الحدث أو ذكر مكانه، فهو لا يؤرخ للأفراد والجماعات، ولا يسجل للأمم والشعوب، جاء فى تفسير المنار عن قصة نوح والطوفان «وبينا أن قصة نوح - عليه السلام - جاءت فى عدة سور، فى كل سورة منها ما ليس فى سائرها من ذلك، ولهذا لم يذكر فيها من حادثة الطوفان إلا ما فيه العبرة والموعظة المقصودة بالذات منها، فذكرت فى بعضها بآية، وفى بعضها بآيتين فما فوقه من جمع القلة، وما فى سورة «هود» هو أطولها وأجمعها» (١).

فالشيخ محمد عبده يرى أن ترتيب الأحداث فى القصص القرآنى ليس قائماً على الأساس التاريخى الذى يضطلع به المؤرخون وإنما يرجع إلى اعتبار بلاغى فنى غايته تحريك العواطف والوجدانات بغية إثارة العقول والأذهان «لم يقصد بهذه الوقائع سرد وقوعها على حسب أزمنة وقوعها، وإنما المراد بها الاعتبار والعظة ببيان النعم متصلة بأسبابها لتطلب بها، وبيان النقم بعللها لتتقى من وجهتها، ومتى كان هذا هو الغرض من السياق، فالواجب أن يكون ترتيب الوقائع فى الذكر على الوجه الذى يكون

(١) المنار جـ١٢ ص١٠١ «محمد عبده»

أبلغ فى التذكير، وأدعى إلى التأثير، فهو فى هذه القصص لم يلتزم ترتيب المؤرخين ولا طريقة الكتاب فى تنسيق الكلام وترتيبه على حسب الوقائع حتى القصة الواحدة، وإنما ينسق الكلام فيه بأسلوب يأخذ بمجامع القلوب، ويحرك الفكر إلى النظر تحريكاً، ويهز النفس للاعتبار هزاً، وقد راعى فى قصص بنى إسرائيل أنواع المنن التى منحها الله إياها وضروب الكفران والفسوق التى قابلوها بها، وما كان فى أثر كل ذلك من تأديبهم بالعقوبات، وابتلائهم بالحسنات والسيئات وكيف كانوا يحدثون فى أثر كل عقوبة توبة، ويحدث لهم فى أثر كل توبة نعمة، ثم يعودون إلى بطرهم، وينقلبون إلى كفرهم (١).

وسلك المنهج طريق القصة التمثيلية - التى تضرب مثلاً - فالتمثيل ضرب من ضروب البلاغة، وفن من فنون البيان، جاء فى النيسابورى، ما يلى: «ونحن نرى أن الانسان يذكر معنى فلا يلوح كما ينبغى، فإذا ذكر المثال اتضح وانكشف، وذلك أن من طبع الخيال حب المحاكاة، فإذا ذكر المعنى وحده أدركه الفعل، ولكن مع منازعة الخيال، ولاشك أن الثانى يكون أكمل، وإذا كان التمثيل يفيد زيادة البيان والوضوح، وجب ذكره فى الكتاب الذى أنزل تبياناً لكل شىء» (٢).

ومفهومنا للقصة التي تضرب مثلاً أن لها مورداً ومضرباً، فليست

(١) المصدر السابق حـ١ ص٣٢٧ وما بعدها.

(٢) غرائب القرآن جـ١ ص١٩٥

وليدة الخيال - كما يزعم البعض - إنما هى وليدة أحداث واقعية فى شخوصها وحوارها، وعقدتها وصراعها، وخير مثال لهذا القصص قصة الملكيين اللذين احتكما إلى داوود عليه السلام، ولسنا مع الذين يقولون «أن التمثيل من صنع الخيال - وأنه موجود فى كتاب الله، وأن من المعانى ما يجىء مباشرة فى صورة التمثيل، وأن استخراج هذه المعانى يحتاج إلى دربة ومقدرة فى علم البيان(١).

ونحن مع «أبى حيان» قلباً وقالباً إذ يقول فى هذه القضية: (٢) «والظاهر إبقاء لفظ النعجة على حقيقتها من كونها أنثى الضأن، ولا يكنى بها عن المرأة، ولا ضرورة تدعو إلى ذلك، لأن ذلك الإخبار كان صادراً من الملائكة على سبيل التصوير للمسألة، فمثلوا بقصة رجل له نعجة ولخليطه تسع وتسعون، فأراد صاحبه تتمة المائة فطمع فى نعجة خليطه وهذا التصوير والتمثيل أبلغ فى المقصود وأدل على المراد» (٣).

---

(١) الفن القصصى فى القرآن الكريم ص١٦١ د. محمد أحمد خلف الله.

(٢) انظر الآيات القرآنية (٢١ - ٢٦) من سورة ص (قصة داوود والملكين).

(٣) البحر المحيط جـ ص ٣٩٢

المنهج النفسي

تتجلي وحدة المنهج النفسي في تصوير طبائع الناس، وتجسيد نفوسهم، وتجسيم عواطفهم ووجداناتهم علي اختلاف اشكالهم وألوانهم وألسنتهم، في لوحات فنية كلية، في عرض جذاب للعقول، ساحر للقلوب والألباب. في مشاهد ونماذج يتوارثها الابناء عن الاباء، في مواجهة هذا المنهج، ومجابهة إعجازه، وميراث التكذيب الذي لقنه الاباء للاولاد مبهورين ومسحورين، مؤمنين وكافرين، هؤلاء يسحرون فيؤمنون، وأولئك يسحرون فيهربون وهذه هي الآبائية(١).

وتتجلي في ابراز كثير من الظواهر السلوكية في الانسان، اذ تتناول النواحي الدينية والروحية، والقيم الانسانية العليا، والحب في اسمي صورة الانسانية.

وتتجلي في اثر العبادات في سلوك الانسان، والصراع النفسي بين الدوافع البدنية والدوافع الروحية، وتوافق الشخصية عن طريق تحقيق التوازن بين الجانب المادي والجانب الروحي في

---

(١) ميراث الاباء للابناء

الانسـان كـالتـخـاطر والاسـتـشـفـاف وغـيـرهـمـا من النواحي الروحية.(١)

سـمع عمـربن الخطاب - رضي الـله عنه - القـرآن فقـال: «لما سمعـت القرآن رق له قلبي فبكيت ودخلني الإسلام.. مـا احسن هذا الكلام واكـرمه!! وسمـعه الوليـد بن المغيـرة ففكر وعـجب ودهش وقدر، وكـاد ان يرق له قلبـه فقالـت قريش: «صبـأ والله الوليد، ولتـصبـون قريش كلهـم، فأرسلوا إليـه كبـير رجالتـها أبا جهل، ليـثيـر نخوته، ويوقد حـميـته، ويلهب حمـاسه، واعـتزازه بكبريائه ونسبه وماله، فطلب أبوجهل منه ان يقول في القرآن شيئا ترضاه قريش، وتعلم انه له كاره فقال: «وماذا اقول فيه؟ فوالله ما منكم رجل اعلم مني بالشعر ولابرجزة، ولابقـصيدة، ولا بأشعار الجن.. والله ما يشبه وما الذي يقوله مـحمد شيئا من هذا!! والله ان لقوله حلاوة، وان عليه لطلاوة، وانه ليحطم ماتحته، وانه ليعلو وما يعلي»

فأصـر ابوجهل إصرارا المسـتميت وقـال: « والله لايرضي قومك حتي تقـول فيه» قال الوليـد: «دعني افكر فيه» فلمـا فكر قال: «ان هذا الا سحر يؤثر» اما رأيتموه يفرق بين الرجل واهله ومواليه؟(٢)

---

(١) انظر القرآن وعلم النفس ص ٢٢ . د. محمد عثمان نجاتي

«التخاطر» : هو تبادل الخواطر والافكار مع شخص اخر قديكون موجودا في مكان بعيد.

الاستشفاف» هو ادراك الاشياء البعيدة الخارجة عن مجال الحواس.

(٢) عن السيرة لابن هشام وتفسير القرطبي.

فكفر وتولي، واستكبر وتقاعس عن كلمة الحق، واخذته العزة بالاثم وابي الدخول في الاسلام.

فالتعبير القرآني تناول هذا الحدث بريشة التصوير النفسي المبدع، فاضطلعت الالفاظ بنقل هيئة الوليد وحركاته، وتصوير عواطفه وانفعالاته، وتجسيد هزاته النفسية وخلجاته، فجاء التعريف بشخصيته تاما اذ انتقل بنا من الجهل بها الي المعرفة التي اورثتنا كراهيتها عن طريق هذا الحديث النفسي، والسلوك الوجداني، واثر في نفوسنا تأثير الهزات الكهربية للامراض العصبية، حيث تم التنيسق بين الاجواء الروحية والفكرية والفنية، وتحقق الغرض الديني، وتمثلت الغاية النفسية، وتمكن الايقاع المطلوب من النفوس والقلوب. قال تعالي: (ذرني ومن خلقت وحيدا، وجعلت له مالا ممدودا، وبنين شهودا، ومهدت له تمهيدا، ثم يطمع ان ازيد، كلا انه كان لآياتنا عنيدا، سأرهقه صعودا، إنه فكر وقدر، فقتل كيف قدر، ثم قتل كيف قدر، ثم نظر، ثم عبس وبسر، ثم ادبر واستكبر، فقال: ان هذا الا سحر يؤثر، ان هذا الا قول البشر) «١١ – ٢٥: المدثر».

لقد صور السياق القرآني هذا الحدث في لوحة مجسدة كشفت عن نفسية هذا الوليد وهو مبهور الانفاس، مخنوق الصوت، مبحوح الحنجرة، ينتفض انتفاضة العصفور بلله القطر، اذ سمع قرآنا نزل فيه ليكون هزأة وسخرية علي الملأ في الدنيا، ويكون حطاما لسقر يوم تقوم الساعة (سأصليه سقر، وما أدراك ما سقر لا تبقى ولاتذر لواحة للبشر). «٢٦– ٢٨: المدثر».

وثمة صورة اخري للوليد بن المغيرة نفسه، رسمها القرآن الكريم له عندما انتدبته قريش ليلقي محمدا ويكون سفيرها عنده، وليقول له كلمتها اليه، ويبلغه وعدها له بالملك والمال والسلطان، فان لم يستجب فستناصبه العداء، وقد نفذ ما امرت به قريش، وقد دعاه النبي صلي الله عليه وسلم- ان يسمع منه كما سمع هو منه، ثم تلا عليه الآيات الاولي من سورة فصلت، فانظر كيف صور القرآن خنوعه وتضرعه، وكيف جسد حالته في تخاذل وانكسار، لقد خرج مبعوثا من قومه متعاليا شامخا، وها هو ذا يخرج من عند الرسول حطام رجل او شبح انسان، يقول الله تعالي في وصفه: (واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا، فانسلخ منها، فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين،ولو شئنا لرفعناه بها، ولكنه اخلد الي الارض واتبع هواه، فمثله كمثل الكلب، ان تحمل عليه يلهث، او تتركه يلهث، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون). «١٧٥- ١٧٦: الاعراف».

ان اللوحة رسمت صورة بشعة لهذا الانسان ورسمته وهو ينسلخ من آيات الله، كما ينسلخ الثعبان من جلده، ورسمته وهو ينحرف عن الهدي ليتبع الهوي، ورسمته وهو يتمرغ في الطين، لاصقا بالارض، حليفا للشيطان مستحوذا عليه.. ورسمته وقد مسخ كلبا دائم اللهث واللهاث، سواء طرود او لم يطارد، هذه المشاهد الفنية العجيبة جعلتنا نراه بأعيننا متدلي اللسان، متقطع الانفاس، حتي ان

اصـوات هذه الانفاس ورتابتـهـا قد اسـتـقـرت في آذاننا لتـتـابعهـا وتواليها.

وهذه لوحـة نفسيـة اخري، حـيث لا سلطان للانسان علي قـلبه، وليس من شـأن القلـب ان يسـتـقـر علي حـال واحـدة في جـمـيع الاحـوال، لما يموج فـيـه من شـتي المشـاعـر، ومـخـتلف العـواطف والنزعات، فـهـا هو ذا سـيدنا ابراهيم -عليـه السلام- قـد سيطرت علية غـريزة حب الاستطلاع وملكت عليه ليـه وفؤداه حتي جـعلته يطلب المزيـد من العلم والايمان، ليـقـتل فـي نفسـه كل وسـواس، وليخمد في صـدره كل نفثة من نفثات الشيطـان، فوجه سؤاله الي ربه يستكنه كيـفية الاحياء بعد الموت، والتشـوف الي اسرار الصنعة الإلهية ليطمئن قلبه، ويسكن روعه، ويشـبع رغبته في ملابسه السر الالهي ويستروح بها، (واذ قال ابراهيم: رب ارني كيف تحيي الموتي قـال: او لم تؤمن قـال: بـلي، ولكن ليطمـئن قلـبي) إثارة لمشـاعـر ابراهيم واستحضارا للايمان الذي يعقد عليه قلبه.

واستجاب الله لشوق ابراهيم واعطاه غـاية مأموله، وابان له التجربة والتعـريف والتطلع، حـتي اشبع غـريزته، وشفـا صدره وطمأن قـلبه (قال):- (فـخذ اربعة من الطيـر، فصرهن اليـك، ثم اجعل علي كل جبل منهن جزءا، ثم ادعهن يأتينك سعيا، واعلم ان الله عزيز حكيم). «٢٦٠ البقرة». ويقوم ابراهيم بالتجربة، وتجئ الطيور الاربعة مسرعة، ويعلّق الفخر الرازي علي هذه القصة قائلا: «والغرض منها ذكر مثال محسوس في عودة الارواح الي الاجساد علي سبيل السهولة».

وفي اللوحة التالية تتجلي النفس المريضة وتعري، ويتجسد القلب الحاقد ويتصدي، ويتجسم الخلق النكد السئ، وتبدو الطبيعة الخبيثة ملموسة، ها هو ذا إبليس، وقد أخذته العزة بالإثم، فاستكبر واستنكف، واستغلق فهمه، وجحد الفضل لذويه، وحسد آدم على ما آتاه الله من نعمة الخلافة فى الأرض، فأبى ـ فى خفة وسرعة وطيش ـ أن يسجد له استكبارا وعلوا واستعظاما وحقدا، حيث حدثته نفسه أنه نارى وآدم طينى، والنار أفضل من الطين، فكان من الجن وفسق عن أمر ربه، وأعلن هذا العصيان الوقاح!! (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم، فسجدوا إلا إبليس، أبى واستكبر وكان من الكافرين). «٣٤ : البقرة» (ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين). «١١: الأعراف» «وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم، فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا)؟ «٦١: الإسراء». (وإذا قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى). «١١٦: طه».. (فسجد الملاكة كلهم أجمعون، إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين) «٧٣ ـ ٧٤: ص». وفى جميع هذه الآيات تبدو لوحة إبليس منفرة، منكرة ملعونة مجسمة الكبر، ملمسة المكر والحقد، بارزة التكبر والخبث.

إن المشهد فى اللوحة قد شخص نفسية هذا اللعين، ورسم تبجحه الخبيث، وعناده وإصراره المطلقين على الشر والغواية. (قال: ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك قال: أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته

من طين، قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين). «١٢ ـ ١٣: الأعراف».

إنه لمشهد حي شاخص متحرك، نتخيله منظرا يعرض، وحادثا يقع، يتيح للعين مدة كافة للتأمل، ويدعو النفس مدة طويلة للتأثر، ويحفز الأحاسيس والمشاعر أن تنفعل، وتعيش الموقف بشتى وجداناتها، وتتابع الصراع والحوار وجرس الكلمات، ونغم العبارات.

ودوافع التملك لهذه الأرض والسيطرة عليها والخلافة فيها، هي التى أثارت نفس إبليس ضد آدم ـ عليه السلام ـ إذ حدثته نفسه أنه أولى منه بالخلافة ـ وأجدر من جميع الملائكة بهذا التقدير، وتلك المنزلة، فلما فشل فى تحقيق أعز أمانيه، وسقط فى يده، وأخذ بتلابيبه عندما أوحى الله ـ تعالى إلى ملائكته (إنى جاعل فى الأرض خليفة). «٣٠: البقرة وكان هذا الخليفة آدم ـ عليه السلام ـ بادر بالكيد له وأضمر عداوته فى نفسه، وتجسد الحقد له فوسوس إليه ـ بدافع حب الحياة والخلود ـ أن يأكل من الشجرة التى نهاه الله عنها ـ فأزله ـ تحت إغرائه وإغوائه، فأكل منها، ووقع فى المعصية. (فوسوس إليه الشيطان ـ قال: يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى، فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة، وعصى آدم ربه فغوى). «١٢٠ ـ ١٢١: طه».

☆☆☆

ووحدة العوامل النفسية فى المنهج القصصى تبدو غالبا مصاحبة

للعواطف الإنسانية التى يثيرها الموقف، ويجيشها الحدث، ازاء المبادىء والمعتقدات ايجابا أو سلبا، فالتفاوت فى تحمل الأعباء النفسية بان الأزمات وصروف الزمان، مائل فى الثلاثة الذين خلفوا عن الغزو مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى ضاقت عليه الأرض بما رحبت ـ فاللوحة تصورهم ونفوسهم ضائقة، وصدورهم حرجة، وأنفاسهم مختلفة، فاللوحة تصورهُم ونفوسهم ضائقة، وصدورهم حرجة، وأنفاسهم مختنقة، وأحاسيسهم مضطربة والمشهد ألبسهم ثوب الحسرة والندم حتى هربوا من أنفسهم ولم يجدوا ملجأ أو مغارة أو مدخلا يأوون إليه بعد أن نبذهم القريب، والغريب والعدو والصديق، ففروا إلى الله، حيث لا ملجأ إلا إليه، ولا راحة إلا فى رحابه، ولا حماية إلا فى كنفه، وكان الله ـ تعالى ـ عند حسن ظنهم به، فعفا عنهم، وقبل توبتهم، فهدأت نفوسهم، واطمأنت قلوبهم، وانفرجت أساريرهم[١] يقول الله تعالى فى سورة التوبة تصويرا لما اعتراهم من حالات نفسية لتخلفهم عن الغزو. (لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة، من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم، ثم تاب عليهم، إنه بهم رءوف رحيم، وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم، وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا

(١) جاء فى كتب التفسير أن الثلاث الذين وردت الآية بشأنهم ـ هم: كعب بن مالك ـ وهلال بن أمية ـ ومرارة بن الربيع.

إليه، ثم تاب عليهم ليتوبوا، إن الله هو التواب الرحيم). «١١٧ ـ ١١٨ : التوبة».

واللوحة التالية ترسم عاطفة الأبوة واللهفة على فلذات الأكباد، والحرص الشديد عليهم، وجلب المنفعة لصالحهم، والعمل على راحتهم، وضمان مستقبلهم، فهاهو ذا سيدنا نوح ـ عليه السلام ـ تشخصه اللوحة رافعا يديه، فاتحا فمه يصيح مناديا ابنه أن يستجيب له ويقبل إلى السفينة، فيأبى الولد وهو بين يدى هذا البلاء المحيط.. وهكذا يحول الموج بين الأب وفلذة كبده، فينجو الأب بإيمانه، ويغرق الإبن الكافر بكفره (وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرساها، إن ربى لغفور رحيم، وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح ابنه وكان فى معزل:

- يا بنى اركب معنا. ولا تكن من الكافرين.

و(قال) الابن العاق الذى خر ج عن أمر أبيه:

- سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء.

(قال) الأب الملهوف المشفق على إبنه والحريص على نجاته:

- لا عاصم اليوم من أمر الله، إلا من رحم.

وتدور السفينة دورتها وتتفتح أبواب السماء بماء منهمر وتتفجر الأرض عيونا، ويعلو الماء ويرتفع حتى يفوق عنان الجبال الشم، ويغرق الإبن مع الهالكين الكافرين.

والصور التى رسمتها اللوحة للموج، لا تعنى أن تكون الأمواج مثل الجبال حجما وعلوا، سواء بسواء، إنما هو تصوير وتمثيل، حتى

يأخذ الخيـال مجاله فى التخـييل والتجسيم، وفـى الأمواج ما يرتفع إلى علو يبـدو وكأنه فوق صـفحة الماء هضـاب، وجبـال على ظهر الأرض.. فالأمواج العاليـة، هى جبال فوق سطح الماء، وإن لم تبلغ الجبال التى على ظهر الأرض طولا وضخامة وارتفاعا» (١).

وعلى الجانب الآخر لوحة تصـويرية أخرى، إنها لم تتناول الأب وحده، وإنما صورت لهفة الوالدين على ابنهمـا الضال، وقد عقهما إلى آخر أيام حيـاتهما، ولم تكن له غاية من كـمال عقلى أو خلقى أو توازن شـعورى، ليس هذا فـحسب!! بل تجاوزه إلى العـدوان عليهـما، إذا يدعـوانه إلى الخير، ويـمدان أيديهمـا إليه بالاحـساس ويطلبان منـه أن يؤمن بالله، وأن يخرج من هذا الضـلال الذى خيم عليه ويجتنب الطاغوت، فـيلقاهما بالردع والزجر، فيستـغيثان الله من أجله ويتـضرعان إليـه أن يهديه إلى الإيمـان، استـجابة لتـحرك عاطفـة الأبوة فى قلبـيهمـا، وحرصـا على نجاته من عـذاب الله.. ولكنه قـد حقت علـيه الكلمـة.. فكان من الخـاسرين (والذى قـال لوالديه:)

- أف لكما!! أتعداننى أن أخرج، وقد خلت القرون من قبلى.

(وهما يستغيثان الله) من أجله، ويطلبان له من الله الهداية.

- «ويلك. آمن.. إن وعد الله حق)

(فيقول) فى بجاحة وصفاقة.

(وما هذا إلا أساطير الأولين) «١٧: الأحقاف»

---

(١) التفسير القرآن. المجلد الثالث ص ١١٤٣ عبد الكريم الخطيب.

وثمة لوحة مقابلة لعاطفة الأبوة، صورها السياق القصصى، وشخصها فى نفسية إبراهيم ـ عليه السلام ـ إذ تحركت فيه عاطفة البنوة نحو أبيه، فاهتم بأمره، وحرص على هدايته، وقد عز عليه أن يراه من الضالين، وهو أقرب الناس إلى قلبه، وهو السبب فى وجوده، فقدم له النصيحة، وحذره عافية كفره ـ بدافع الحب والتقدير والاحترام ـ ولكن الصراع الحاد بين الإيمان والكفر، وبين الهدى والضلال، قد بلغ ذروته حتى فرق بين الإبن وأبيه.

فالصورة مفعمة بالأدب الجم فى مخاطبة ابراهيم لأبيه، ففى كل دعوة تصدر منه إلى أبيه يصدرها بقوله (يا أبت) إنه نداء رقيق حبيب تظلله الرحمة ويغمره الحنان.

وفى مقابل هذه العاطفة الجياشة الرحيمة الودود، عاطفة العناد والخشونة والكفر والتهديد بالرجم والطرد والعذاب الغليظ من جانب أبيه. (واذكر فى الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا. إذ قال لأبيه:)

ـ (يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر، ولا يغنى عنك شيئا يا أبت إنى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك، فاتبعنى أهدك صراطا سويا،

ـ (يا أبت لا تعبد الشيطان، إن الشيطان كان للرحمن عصيا، يا أبت إنى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن، فتكون للشيطان وليا).

فيرد الأب الضليل ـ دون أن تند منه عاطفة نحو ابنه ـ فلم يقل: يابنى أو يا ولد وإنما (قال):

ـ (أراغب أنت عـن آلهـتى يا ابراهيـم لئن لم تنتـه لأرجــمنك، واهجرنى مليا)!!

واسـتـقبـل إبراهيم الحليم ثورة أبيـه العـاصـفـة المجنونة، ورد هذا الحمق الجهول، والسفه الطائش (قال):

ـ (سلام عليك سأستغفر لك ربـى، إنه كان بى حفيا، وأعتز لكم وما تدعـون من دون الله، وأدعو ربـى، عسى ألا أكون بـدعاء ربى شقيا).

«٤١ ـ ٤٨: مريم».

إن كلتـا الغـريزين قد جـسـدها السـياق الـقصـصى فى لوحـتين شاخـصتين متقـابلتين: لوحة القسوة والعنف والـغلظة المتغلغلة فى طبيعـة الأب، ولوحة البر والاحسان والحنان والـتقدير والعطف فى طيـبة الابن الرحـيم، هذه الرغـبات الجـامحـة والمشاعـر الصادقـة، والانفعالات الثائرة فى كلتا الطبيعتين، نتجت عن تغلغل القصة فى كلتيهما، وفرقت بين الأب وولده، وبين الإبن وأبيه.

وهناك الحـالة النفـسـيـة المذبذبة، حـالة عدم الاسـتـقـرار والقلق والحيرة، هذا الطراز من الناس الـذين لا رأى لهم، ولا هم فى العير ولا فى النفيـر (مذبذبـين بين ذلك، لا إلى هؤلاء، ولا إلى هؤلاء، ومن يضلل الله فلن تجـد له سـبيـلا) «١٤٣: النسـاء» فاللوحـة هنا جسدت حياة هؤلاءالمشركين ونفسياتهم المعقدة والموزعة بين الآلهة المتـعـددة، إذ هم نهب للأهواء ومطيـة لكل ناعق، فـهم لم يعـودوا صالحين إلى الطبائع البـشرية السليمة، ولا سـبيل لهم إلى الخلاص

من هذا الداء الذى توطد فى نفوسهم، وتمكن من قلوبهم (قل: أندعو من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا، ونرد على أعقابنا، بعد إذ هدانا الله كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران، له أصحاب يدعونه إلى الهدى ائتنا. قل: إن هدى الله هو الهدى، وأمرنا لنسلم لرب العالمين). «٧١: الأنعام».

فهذه حالة من حالات الصراع النفسى، إذ تعارضت الدوافع إلى اتجاه معين، واصطدمت بدوافع أخرى إلى اتجاه مضاد، فما استقاموا فى اتجاه الإيمان، وما اتجهوا إلى ناحية الكفر والضلال، ولكنهم عجزوا عن اتخاذ القرار، فالشياطين تستهويهم وتجذبهم إلى الطين والأرض وإخوانهم المؤمنون يمدون إليهم أيديهم لينقذوهم ويدعوهم إلى الإيمان وهم واقفون حائرين مترددين مذبذبين لا إلى هؤلاء ولا هؤلاء.

رسمت اللوحة صورة معبرة، لهؤلاء الضالين الذين لا يعيشون إلا فى الظلام، استهواهم الشيطان إلى الأرض حيث الطين والتخبط فى الدياجى، والانتكاس على الأعقاب، فى حين أن لهم أصحاب يدعونهم إلى الهدى والخروج من الظلمات، مادين إليهم أيديهم بحبل النجاة، فلا يستجيبون لهم، «ولا حياة لمن تنادى».

إنهم مساكين يستحقون العطف، لأنهم فى حيرة بالغة. وقلق دائم واضطراب مستمر، تنكبوا الطريق، وتشعبت بهم السبل. (من يهد الله فهو المهتد ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا). «١٧: الكهف».

فالعـاطفة الدينية أقـوى من عاطفة الـرحـم، والأخوة فى الله أمتن من الأخـوة فى النسب، والآصـرة الـتى تجـمع الناس على وجـهـة واحـدة، وملة مـؤتلفـة، وصبـغـة مـفطورة، هى المعـول فى العـمل الصالح (فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون، فـمن ثقلت مـوازينه فـأولئك هـم المفلحـون، ومن خـفت مـوازينه فأولئـك الذين خسروا أنفـسهم فى جنهـم خالدون). «١٠١: ١٠٣: المؤمنون».

لقـد فـرق الإيمان بين المؤمنين والـكافـرين، وجـعل ولاء المؤمنين عامة، أيا كـان لونهم وجنسهم، ويا كانت درجـة القرابة فى النسب بينهم وبينه، على حين قطع ولاء لأهله، وأقرب المقربين إليه، إذا لم يكونوا من المؤمـنين بالله ورسـوله. (ياأيهـا الذين آمنوا لا تتـخـذوا آباءكم وإخـوانكم أوليـاء إن اسـتـحـبـوا الكفـر على الإيمان، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الـظالمون). «٢٣: التوبة». فالنهى فى الآية واقع على الولاء والإيـثـار، وتغليب مـصلحـتـهـم على مـصـالح المؤمنين، أمـا النهى عن المشـاعر والأحـساسـيس أمر قـد لا تحـتـمله النفوس. لأن فيـه مشقة ومعـاناة وحرج، والشريعة الإسـلامية براء منـه. (قل إن كـــان آبـاؤكم وأبنـاؤكم وإخــــوانكم وأزواجـكـم وعشيرتكم، وأموال اقترفتموها، وتجارة تخشون كسادها، ومساكن ترضونها أحب إليكم من اللـه ورسوله، وجهاد فى سبيله فـتربصوا حتى يأتى الله بأمـر، والله لا يهدى القوم الفاسـقين). «٢٤: التوبة». وقال تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء،

تلقون إليهم بالمودة، وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول واياكم أن تؤمنوا بالله ربكم، إن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى وابتغاء مرضاتى تسرون إليهم بالمودة، وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم، ومن يفعله منك فقد ضل سواء السبيل، إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون لن تنفعكم أرحا مكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير قد كانت لكم أسوة حسنة فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم: إنا برءاء منكم ومما تعبدون من دون الله، كفرنا بكم، وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا، حتى تؤمنوا بالله وحده، إلا قول ابراهيم لأبيه لأستغفرن لك، وما أملك لك من الله من شيء، ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير). «١:٤ الممتحنة».

وشبيه بهذه اللوحة، لوحة الذين يعبدون الله على حرف، تتسلط على قلوبهم خواطر التفاؤل والتشاؤم، وتسيطر على نفوسهم عوامل قديمة وأخرى حديثة، وتتنازع عواطفهم أسباب المكسب والخسارة، فهم يقعون فريسة القلق والاضطراب، حتى لايستقروا على يقين، يضجون وينعقون إذا مستهم الضراء، ويطيرون من الفرح إذا لمستهم السراء، وتبلغ أفئدتهم الحناجر إذا ما ابتلوا فى أنفسهم وأموالهم وأولادهم، وتسمع مكاءهم وتصديتهم إذا نجوا من موت محقق، أو غنموا غنما طائلا؛ لأن ميزان العقيدة عندهم ميزان حسى، ومقياس الدين ومفهومه مرتبط بالمكسب والخسارة،

مثلهم كـمثل الذين يؤمنون ببعض الكتاب ويكفـرون ببعض، إنهـم يقـفون على مـفتـرق الطرق بين الإيمان والكفـر، إنهم يعبـدون الله على حرف أو جانب واحـد، دون أن يعطوا الله وجودهم كله، فإن أصابهـم فى دنيـاهـم خير أو مـستهم عـافية، أطمـأنوا وهدأ روعهم، وإن أصـابتهم مـصيبة، أنكروا اللـه وتنكروا النعمـة والآية. (ومن الناس من يعـبد الله علـى حرف، فـإن أصابه خـير اطمـأن به، وإن أصـابته فـتنة انقلب على وجـهه، خـسـر الدنيا والآخـرة، ذلك هو الخسران المبين، يدعو من دون الله مـا لايضره وما لاينفعه، ذلك هو الضـلال البـعـيـد) لأنه يفـر من وجه الـله ويفـزع من بلائه إلى من لايملك ضـرا ولا نفـعا. (يدعـو لمن ضـره أقـرب من نفعـه، لبـئس المولى، ولبئس العشير) «١١ ــ ١٣:».

إنه لمشـهد عـجيب، شـخص هذه النفوس المريضـة، ورسم هذه القلوب المغلقـة عن الخـيـر، والأسمـاع النابيـة عن الحق، وصـور الأبصار الـكليلة عن الهدى، والعـزيمة الرخوة المائعـة، والعقـيدة المضعضعة الفانية، حتى إذا جد الجد، وظهر الشد والمد، انكشفت حقيقة نفوسهم وتعرت طبائعهم التى لاتعرف ربها، ولا تلجأ إليه إلا فى سـاعـات الضـيـق والكرب (هو الذى يسـيـركم فى البـر والبحر، حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم بريح طيبة، وفرحوا بهـا جاءتهـا ريح عـاصف، وجاءهـم الموج من كل مكان، وظنوا أنهم أحيط بهم، دعـوا الله مخلصين له الدين: لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشـاكرين، فـلما أنجـاهم، إذا هم يبغـون فى الأرض

بغير الحق، ياأيها الناس - إنما بغيكم علي أنفسكم، متاع الحياة الدنيا، ثم إلينا مرجعكم، فننبئكم بما كنتم تعملون) «٢٢ ـ ٢٣: يونس».

إن اللوحة مليئة بالأحاسيس والمشاعر، والخواطر والوجدانات، وإن الخيال ليتمثل هذه الفئة من الناس يركبون البحر فى ريح رخاء، تصحبهم السكينة والبهجة، يرتعون ويمرحون فى بلهنية ورفاهية، وعلى حين غرة يهيج البحر ويضطرب، وتزمجر العواطف وتلتهب، فإذا الهلع والفزع، والصراخ والصياح والعويل، كل يتشبث بالآخر فى هذيان محموم، وكرب مكروب، وتتعالى الصيحات والاستغاثات، وتختلط الصراعات والتأوهات والاستنجادات، فتدركهم رحمة الله، وتحل النجاة، وتهدأ العاصفة وتخفت الأصوات، وتطمئن القلوب، ويبلغ السفن شاطىء الأمن والسلام، وإذا بالناس هم الناس، وطبائعهم النكرة تنسيهم شكر الله، وقلوبهم الجاحدة كافرة بنعم الله.

وتصور اللوحة التالية ملأ من بنى إسرائيل، نفسياتهم كريهة للمهابة والنخوة، وعواطفهم ميتة لا يعرفون للغيرة طريقا، ولا للحمية سبيلا، رضوا بالذلة والخنوع والهوان، إذ لايدافعون عن حرماتهم ولايذودون عن حياضهم، ولايرون العدو المتسلط عليهم، أعمّاهم حب المال عن كل فضيلة، ورضوا أن يرتكبوا فى سبيله كل رزيلة، وركبهم البغى، وتسلط عليهم الغرور، وأخذهم العجب والكبر، فسلط الله عليهم من بدد شملهم، وخرب ديارهم،

ووطىء حرماتهم، وأذل ملكهم، وأهلك أموالهم، وأخرجهم من أرضهم ونبذهم بالعراء فى التيه أربعين سنة.

ولما جاء خلفهم من بعدهم، ودبت الحياة فيهم، تحركت فيهم شارة من رجولة، وقلامة من نخوة فقالوا لنبيهم: اختر لنا ملكا نجتمع إليه، ونلتف حوله، ونقاتل تحت لوائه، لنستعيد ملكنا، ونرجع إلينا ديارنا، ونبيهم على علم يقين بطباتهم، ودخائل نفوسهم، وعقد عواطفهم، وتبلد احساسهم، وموات شعورهم، إذ يرى فى أنفسهم ما لا يرون، ويعلم من أمرهم ما لا يعلمون، لأنهم يقولون مالا يفعلون، ويظهرون بأقوالهم ما يخالف المكنون فى صدورهم، أو يبطلون.

ولما سألهم نبيهم عن مدى خوضهم لتجربة المعامع، وكيفية الزحف والقتال، وممارستهم الاحتدام والنزال- أخذتهم الحمية الفارغة، وتغلبت عليهم شهوة القول، وتملكتهم غريزة حب الظهور فأجابوه ولم لا؟ إن الحوافز التى تدفعهم إلى خوض هذه التجربة لكثيرة، لقد أخرجوا من ديارهم، وسلبت أموالهم، وشردوا وقطعوا هم وأولادهم، فهل يصبرون على هذا الضيم وتلك المذلة؟؟

وحين جد الجد، واشتد المد، وحانت ساعة القتال، وحمى وطيس النزال - رجعت أنفسهم المريضة إلى طبيعتها، وماتت قلوبهم وتبلدت أحاسيسهم، ونكصوا على أعقابهم، وسلكوا منوال آبائهم، ومن شابه أباه فما ظلم، وأبوا أن يكونوا رجالا أو أشباه رجال، فزلت أقدامهم، وتعفرت وجوههم بغبار الخزى والمهانة، وسقطوا فى

حضيض الذلة كآبائهم. (ألم تر إلي الملا من بنى اسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله، قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين) ٢٤٦: البقرة.

ولما اختار الله لهم ملكا يقاتلون تحت لوائه، إجابة لطلبهم، عادت أنفسهم تزنه بميزانهم الحسى والمادى، ولم تقع أنظارهم على ما فيه من فضائل نفسية وخلقية وروحية، حيث يتفاضل الناس بها ويتميزون ويتفاخرون ويمتدحون ويفضلون، ولكن المال أعماهم، والذهب والفضة أغواهم، وحب الاقتناء أغلق تفكيرهم وأذهانهم، فانكروا أن يكون ملكا عليهم ذلك المختار من السماء. (وقال لهم نبيهم: إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنى يكون له الملك علينا، ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة فى العلم والجسم والله يؤت ملكه من يشاء والله واسع عليم) «٢٤٧: البقرة».

إن طبائعهم اللئيمة التى ترى الحق رأى العين فتكتمه وتنكره، وإن خبثهم ومكرهم بلغ حدا من السفه، حتى قتلوا انبياء الله ورسله، لقد تمكن داء حب الحياة، والاستكثار من ملذاتها ومتاعها فى أنفسهم، ولقد أعماهم الغرور فكفروا بآيات الله، وجحدوا نعمه، وغيروا وبدلوا آياته حسب ما أملت عليهم أهواؤهم وسولت لهم أنفسهم.

واللوحة الثانية تشير إلى ما فى نفوس هؤلاء القطعان الشاردة من كنود، وما فى طبائعهم من جفاء وجماح، وما ضم عليه كيانهم من جحود وكفران بآلاء الله التى أسيغها عليهم.

من هذه النعم نجاتهم من فرعون ومارهقهم به من محن حيث كان يذبح أبناءهم ويستحيى نساءهم (وإ ذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب، يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم، وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم) «٤٩: البقرة».

ومنها تكريم الله نبيهم موسى حيث أنزله فى رحاب ضيافته أربعين ليلة يناجيه فيها، ويوحى إليه بآياته وكلماته، ولكن طباعهم النكدة تأبى أن تعلو إلى مشارف النور، بل شدت إلى الأرض والتصقت بالطين، ترعى مع البهائم وتهيم فى اودية الضلال، فيتخذون من العجل إلها معبودا من دون الله. (وإذ واعدنا موسى أربعين ليلة، ثم اتخذتم العجْل من بعده وأنتم ظالمون، ثم عفونا عنكم من بعد ذلك لعلكم تَشكرون). «٥١ ـ ٥٢ : البقرة».

ومنها سوْق الغمام ليظلهم من وقدة الشمس وفح الهجير من هذا التيه الذى كتب عليهم أربعين سنة فى الصحراء، وإرسال المن والسلوى، طعام لا يتكلف عملا، ولا بذل مجهود (وظللنا عليكم الغمام، وأنزلنا عليكم المن والسلوى، كلوا من طيبات ما رزقناكم، وما ظلمونا، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) «٥٧ : البقرة».

ومنها انفجار الماء من الحجر بعد أن ضربه موسي بعصاه، بعد أن تحرقت أكبادهم عطشا فى هجير الصحراء التى تاهوا فيها. (وإذ

استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله، ولا تعثوا فى الأرض مفسدين). «٦٠ : البقرة».

ومنها عفو الله عنهم بعد أن تنبهت فيهم غريزة المكر واللؤم، وتحرك فيهم داء اللجاج والعناد، فطلبوا من موسى أن يروا الله جهرة حتى يؤمنوا به (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون) «٥٥ : البقرة»، إنهم لا يتعاملون مع الحياة إلا عن طريق المحسوسات وليس لهم من الادراك الفعلى شئ.. أنهم لم يستطيعوا أن يروا الله فى آياته التى تدل عليه، أو فى معجزاته التى يجريها على يد نبيهم موسى عليه السلام، (واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا، فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وأياى) «١٥٥ : الأعراف».

فعفا الله عنهم وإستجاب لموسى تضرعه ودعاءه فأحياهم بعد أن أخذتهم الصاعقة (ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون). «٥٦ : البقرة».

واللوحة التالية تجسد ضعف ثقتهم بأنفسهم، ينقضون العهد وينكثون علي ذواتهم، يلبون الدعوة طالما بينهم موسى ـ عليه السلام ـ ويرجعون الى طينتهم النكدة إذا غاب عنهم، فالرياء والجبن والكذب والنج والشح والنفعية والانتهازية أعمتهم حتى أنهم لا يستطيعون أخذ القرار، فهم فى ريبة وشك وتردد بين إقبال وإدبار، وإن ذلك كله يتمثل فى قصة البقرة التى أمرهم الله

بذبحهـا، إذ عانـدوا وتلكئوا فى تنفيذ الأمـر، وانتحلوا المعـاذير وتشددوا فشدد الله عليهم.

لقد قـتل فى القوم قتيل، واختفى القـاتل ولم يتعرف عليه أحد، واتهم بعضهم بعضا وادارؤا فيه، وذهبوا إلى موسى ـ عليه السلام ـ يختبـرونه ويمتحنون قدرته ومعـجزاته، بل ليستيـقنوا من دعواه أنه رسول الله وكليمه.

ويوحى الله سبـحـانه وتـعالـى ـ إلى رسـوله أن يذبحـوا بقـرة، ودهشوا وعـجبوا مـا للبقرة والقـتيل؟ وما العـلاقة بينهمـا، وكيف يتـعرفون عـلى القتـيل عن طريق البقـرة، وبلغ بهم الأمر إلى اتـهام الرسول باتخاذهم هزوا وسخريـة وحاش للرسول ـ عليه السلام ـ أن يكون من الجاهلين، لأنه نبى معصوم.

وفكروا وقدروا وجمعوا بين الجـهل والسفاهة وطلبوا من موسى أن يدعو ربه فى كيفية هذه البقرة وماهيتها، فأجابهم ـ عليه السلام ـ يأتها من أواسط البقـر فى سنها، وليست بالكبيرة أو الصـغيرة، ولم تهدّها الولادة الـكثيرة أو لـم يسـبق لها الولادة فـهى عوان بين ذلك الطرفين، ولكنهم علـى عنتهم وعنادهم وتـشددهم باقـون، فسـألوا موسى عن لونها فأجابهم، وفى كل مرة تضيق عليهم الحلقة، ويدق الوصف حتى حـفيت أقدامـهم على بقرة صـفراء فاقع لونهـا تسر الناظرين، لم يذللهـا العـمل فى حرث الأرض، ولم تستخـدم فى سقى الزرع، بريئة من كل عيب فى أعضائها ولونها.

لم يجـدوا هذه البقـرة ـ بأوصافـها الـكاملة ـ إلا عند رجل منهم

كان بارا بوالديه فطلبوها منه فأبى، فرغّبوه فى ثمنها حتى أعطوه - بوزنها - عشر مرات ذهبا - وأمرهم موسى بذبحها فترددوا فى تنفيذ الأمر - لجاجا وتخبطا، وعنادا، ثم فتحوا أعينهم وأفواههم مشدوهين، وماذا بعد الذبح؟؟ وهنا تتضح العلاقة، وتتوثق الصلة بين ذبح البقرة وهذا القتيل، حيث أمروا بضربه ببعضها، فلما ضربوه ببعضها أحياه الله - تعالى - فقام وهو يشخب أوداجه، فسأله نبى الله موسى : من قتلك؟ قال - قتلنى ابن أخى، ثم عاد ميتا كما كان. قال الله تعالى (وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة، قالوا

ـ أتتخذنا هزوا (قال) :

ـ أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين. (قالوا) :

ـ ادع لنا ربك يبين لنا ما هى (قال) :

ـ إنه يقول : إنها بقرة لا فارض ولا بكر، عوان بين ذلك فافعلوا ما تؤمرون. (قالوا)

ـ ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها (قال) :

ـ إنه يقول : إنها بقرة صفراء فاقع لونها تسر الناظرين. (قالوا) :

ـ ادع لنا ربك يبين له ما هي إن البقر تشابه علينا، وإنا إن شاء الله لمهتدون. (قال) :

ـ إنه يقول : إنها بقرة لا ذلول تثير الأرض، ولا تسقى الحرث مسلمة لا شية فيها. (قالوا) :

ـ الآن جئت بالحق (فذبحوها وما كادوا يفعلون)

(وإذ قتلتم نفسا، فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون، فقلنا) :

ـ اضربوه ببعضها (كذلك يحيى الله الموتى، ويريكم آياته لعلكم تعقلون). الآيات : «٦٧ ـ ٧٣ : البقرة».

لو أن بنى إسرائيل امتثلوا ما أمروا به من أول الأمر وعمدوا إلى أية بقرة من البقر لكانوا قد أدّوا ما أمروا به، وكفواْ أنفسهم مئونة هذا العذاب وذلك العناء، فإنه ليس للبقرة ولا لذبحها وضرب الميت ببعض لحمها علاقة بالحياة التى عادت إليه، فقدرة الله فوق الأسباب جميعا، ولكن الهدف أن الناس يعملون ويتحركون إلى الغايات التى ينشدونها، فالتلازم بين الأسباب والمسببات مرهون بإرادة الله، وبقدرة الله.

ومن الوجهة الفنية، قدّم النظم القرآنى ما حقه التأخير، وأخّر ما حقه التقديم، فالأحداث مقلوبة ـ وذلك ما يلجأ إليه كبار الكتاب الآن ـ فورد ذبح البقرة بعد أن وقع حادث القتل، وبعد أن تراموْا بالتهم فيه، والحكمة المقصودة من هذا أن ذبح البقرة أمر ليس مقصودا لذاته وإنما هو وسيلة، للتلازم بين الأسباب والمسببات.

☆ ☆ ☆

وفى اللوحة التالية تصوير للتردد والخوف والقلق النفسى الذى وقع فى بعض نفوس المسلمين فى غزوة أحد، حتى لنصير الخواطر كأنها أصوات تسمع، أو كأنها مسطورات تقرأ، أو كأنها

محسوسات تلمس، فلا تخفى على الله خافية، مما يدور فى الصدور، أو خاطرة تحاك فى أعماق القلوب.

فقد أعد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جيشا ليلقى قريشا وجموعها ـ التى أقبلت على مشارف المدينة ـ عند جبل أحد، وقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - للمقاتلين قبل المعركة «لا يقاتلن أحد حتى آمره بالقتال» ونزل الكفار ببطن الوادى، وكان معهم مائتى فارس يمتطون صهوات خيولهم، وأمر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أصحابه إلايبرحوا أماكنهم، سواء أكان المسلمون منتصرون أم منهزمين، وأمر عليهم عبدالله بن جبير، والتحم الجيشان، وظهر المسلمون فى أعلى صور البطولة والإقدام والفروسية، وبرز فى القتال «حمزة» عم النبى - صلى الله عليه سلم - فقتل اثنين من حملة لواء الشرك وغيرهما وكان يترصد لحمزة عبد حبشى يسمى «وحشى» ماهر فى رمى الرمح، فأصاب «حمزة» بحربته إصابة قاتلة قر على اثرها صريعا وبرز فى المعركة ابو دحانة وكان قد منحه النبى - صلى الله عليه سلم - سيفه ، فكان لا يلقى أحدا إلا قتله، وكان حامل لواء جيش المسلمين «مصعب بن عمير» فقاتل حتى قتل، فأعطى الرسول - صلى الله عليه سلم - اللواء إلى «على بن أبى طالب» وقال له: «قدم الراية» فتقدم على قائلا: «أنا أبوالقصم» فناداه صاحب لواء المشركين أبوسعد بن أبى طلحة قائلا: «هل لك ياأبا القصم فى البراز من حاجة؟ قال : نعم ، فبرزا بين الصفين، واختلفا ضربتين، فضربه

على فصرعه، ثم حملت خيالة المشركين على المسلمين وسرعان ماارتدوا على أعقابهم خاسرين، بسبب ما أصابهم من نبال المسلمين - فوق الجبل - والتقى المشاة وحمى الوطيس، وما هى إلا ساعة حتى خار المشركون، وولوا الأدبار - ونساؤهم يولولن - وتبعهم المسلمون يجمعون الغنائم والأسلاب.

ولما رأى الرماة الذين وضعهم الرسول - صلى الله عليه سلم - لحماية ظهور المسلمين أن الدائرة على المشركين، وانكباب إخوانهم المسلمين على الغنائم.. نزلوا عن مكانهم بالجبل، ليشاركوا الغنيمة، فحذرهم «عبدالله بن جبير» أميرهم قائلا: «إن ذلك مخالفة لأمر رسول الله - صلى الله عليه سلم - فعصوه ونزلوا إلا قليلا منهم».

فلما آنس «خالد بن الوليد» زوال هذه العقبة ، أسره إلى مهاجمة من بقى فوق الجبل، فقتلهم جميعا، وأتى المسلمين من ورائهم ، فلما رأوا ذلك البلاء دهشوا وتركوا الأسلاب والغنائم، واختلت صفوفهم، حتى صار بعضهم يضرب بعضا، وتفرق عن الرسول - صلى الله عليه سلم - أصحابه، ودخل بعضهم المدينة، وانتلقت طائفة فوق الجبل إلى الصخرة، وجعل الرسول - صلى الله عليه سلم - يدعو الناس : «إلى عباد الله.. إلى عباد الله : أنا النبى لا كذب : انا ابن عبدالمطلب، فالتف حوله نفر من أنصاره ، منهم أبوطلحة الأنصارى ، وكان مناضلا عنيدا، تكسرت أقواسه، وهو يحمى رسول الله - صلى الله عليه سلم - ويقول: بأبى أنت وأمى يارسول الله، لا يصيبك سهم، نحرى دون نحرك ، ومنهم «سعد بن أبى

وقاص» وكان النبى - صلى الله عليه سلم - يقول له: «ارم سعد فداك أبى وأمى» ومنهم «سهل بن حنيف» وكان من مشاهير الرماة ومنهم «أبو دجانة» الأنصارى، الذى جعل نفسه متراسا للنبى - صلى الله عليه سلم - وهو منحن عليه، فصار النبل يقع على ظهره حتى كثر فيه، فخر صريعا، ومنهم «زياد بن الحارث» وقد دافع عن النبى - صلى الله عليه سلم - حتى وقع صريعا دونه.

وقصد أبى بن خلف رسول الله - صلى الله عليه سلم - يريد قتله، فلما قرب منه ضربه النبى برمح أرداه قتيلا، وأصيب النبى - صلى الله عليه سلم - بجراح من تأثير حجارة سقطت عليه، فكسرت رباعيته (١) وشج فى جبهته، وجرحت شفته السفلى، فصار الدم يسيل على وجهه فقال: «كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم؟ فأنزل الله سبحانه وتعالى قوله: (ليس لك من الأمر شىء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون). «١٢٨ : آل عمران».

وسقط رسول الله - صلى الله عليه سلم - فى حفرة من الحفر التى عملها «الراهب» ليقع فيها المسلمون وهم لا يعلمون، فأخذ على بن أبى طالب بيد الرسول، ورفعه طلحة حتى استوى قائما وهو يقول - صلى الله عليه سلم - « لله أصبع دميت وفى سبيل الله ما لقيت» (٢)

---

(١) - السن التى بين الثنية والناب.
(٢) - البداية والنهاية: الجزء الثانى ص ٩٦ وما بعدها .. الحافظ بن كثير.

لو تأملنا هذه اللوحة لوجدنا أنها حوت عدة مشاهد، كشفت معالم الطريق التي يفتش فيها المسلمين عن أنفسهم، لتكون في مجال البصر والعبرة وهم يرتادون مواقع الخير الذى يدنيهم من التقوى ، ويمكن لهم من الصبر.

وتبدو الوحدة المنهجية في إبراز ما في الرؤوس من تزاحم الأفكار، وتجسيد ماعلى الشفاه من خواطر وهمسات، وتصوير الغمغمات التى تكاد لكثرتها أن تكون هديرا البحار الهائجة، أو زمجرة كزمجرة الرياح الهوج.

(وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال، والله سميع عليم، إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا والله وليهما وعلى الله فليتوكل المؤمنون) «١٢٢ آل عمران».

فالمشهد هنا يعكس صورة النبى - صلى الله عليه سلم - وهو يغدو مبكرا بعزيمة قوية ، وهو ومن معه من المتقين، ليقاتل قريشا وجموعها التى أشرفت على المدينة عند جبل أحد ، ويعطينا المشهد حرية التخييل فى حركاته - صلى الله عليه سلم - وهيمنته على جنوده وهو يبوئهم مقاعد للقتال، ويحذرهم مغادرتها فى حالتى النصر أو الهزيمة.

ومشهد النفوس المريضة التى تظهر مالا تكن من التردد بين الإقدام والإحجام، مما خول لها الفرار من المعركة قبل نشوبه، حيث كانت فريسة للوساوس السيئة، أو النزعات الشريرة.

والمشـهد التـالى يصور مـعركـة بدر التى انتصـر فيـها المسلـمون انتصارا حاسما

على هذا العدو الغفير الذى جاء اليهم يومذاك وفى المشهد صورة حية نابضة، فيـها كل أحداث المعركة بشخوصها ومـشخصاتها من بدئها إلى نهايتها ، تذكيرا للمقاتلين، وتشجيعا لخوض المعمعة.

(ولقد نصركم الله ببـدر، وأنتم أذلة، فاتقوا الله لعلكم تشكرون، إذ تقول لـلمؤمنين: ألن يكفـيكم أن يمدكم ربكم بثـلاثة آلاف من الملائكة منزلين، بلـى إن تصبـروا وتتقـوا، ويأتوكم من فـورهم هذا يمددكم ربكم بخـمسة آلاف من الملائكة مـسومين، ومـا جعله الله إلا بشـرى لكم، ولتطمـئن قلوبكم به، ومـا النصـر إلا من عند الله العزيز الحكيم). «١٢٣ ـ ١٢٦ : آل عمران».

ومشهـد هذا المدد السماوى، والتخـييل يتصوره كـيف كان نزول الملائكة؟ على هيئة رجـال أو فرسان أو ملائكة بصورها الطبـيعية؟ والسيوف القاطـعة فى أيديهم تطيح الرءوس وتضرب كل بنان (إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكـم، فثبتـوا الذين آمنوا، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب، فاضـربوا فوق الأعناق، واضربوا منهم كل بنان) «١٢ : الانفـال» «إن هذه القـوى السـماوية لـو جسـدت لكانت رجـالا وفـرسـانا، ولو عـدت لكان حـسـابهـا فى الرجـال والفرسان بثلاثة الاف من المقاتلين» (١)

(١) – التفسير القرآنى للقرآن : المجلد الأول ص ٥٧٦ عبدالكريم الخطيب

(إذ تستغيثون ربكم ، فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين، وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم، وما النصر إلا من عند الله، إن الله عزيز حكيم). «٩ ـ ١٠ الأنفال.

والمشهد الذى يشير إلى ما كان من جماعة الرماة التى جعلها الرسول الكريم من وراء جيش المسلمين تحمى ظهورهم، من أن يأخذهم كمين من العدو يفاجئهم علي غرة، فإننا لو تصورنا اللوحة الفنية للمحاولة التي حدثت بين الرماة والحوار الحاد الذي دار بينهم وفحواه:

- ما موقفنا هنا وقد ولي المشركون الأدبار وانهزموا؟

- إن الرسول - صلي الله عليه وسلم - لم يلزمنا أن نكون حيث نحن، إلا لنحمي ظهر المسلمين من العدو، فأين هذا العدو؟

- ياقوم: الزموا أماكنكم كما أمرنا رسول الله، ولا تتحولوا عنها.

وليتصور الخيال ما ورد في هذه اللوحة من تكالب المسلمين علي الغنائم والأسلاب، كل يريد حظه منها، إنها غريزة حب الاقتناء.. أنظر كيف صورتها الآية الكريمة وجسدتها، بقول الله تعالى: (ولقد صدقكم الله وعده، إذ تحسونهم بإذنه، حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر، وعصيتم من بعد ما أراكم ماتحبون، منكم من يريد الدنيا، ومنكم من يريد الآخرة، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم، ولقد عفا عنكم، والله ذو فضل علي المؤمنين) «١٥٢: آل عمران».

أما مشهد انقضاض خالد بن الوليد، ومن معه من المشركين، علي المسلمين من الخلف - بعد أن ترك بعض الرماة أماكنهم - فقد

شخصت الآيـة الكريمة التالية المفاجـأة التي أذهلت جيش المسلمين، حـتى ضرب بعـضهـم بعضـا، حينمـا أوتوا من الخلف علي غـرة، وأمعن خـالد القتل والتـمثيل فـيهم، حتى تحـولت دفة المعـركة من جانب المسلمين إلي جانب المشركين. (ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغـشى طائفة منكم، وطائفة قد أهمتـهـم أنفسهم، يظنون بالله غيـر الحق ظن الجاهلية، يقـولون هل لنا من الأمر من شئ قل: إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك، يقولون: لو كان لنا من الأمر شئ مـا قتلنا هاهنا، قل لو كنتم في بيـوتكم لبرز الذين كتب عليـهم القتل إلى مـضاجعهم، وليـبتلي الله مـا فى صدوركم، وليـمحص مـافي قلوبكم، والله عليم بذات الصـدور). «١٥٤ : آل عمران».

☆ ☆ ☆

وفي قصـة قابيل وهابيل ما يشـير إلي ما سيـحدث بين الناس من ظلم بعضهم لبـعض، واعتداء بعضهم علي بعض بسـبب المنافسة، والانسـياق وراء شـهواتهم، وانقـيـادهم لغريزة الجنس، فـوقع أول حادث قتل في حياة البشرية بسبب إغواء الشيطان، إذ تمكنت الغيرة في نفس قابيل حينمـا تقبل الله تعالي قربان أخيـه هابيل ولـم يتقبل قربانـه فقتل أخـاه. (واتل عليهم نبـأ ابني آدم بالحق، إذ قربا قـربانا، فتقبل من أحدهما، ولـم يتقبل من الآخر، قال:)

- لأقتلنك). فرد عليه هابيل (قال):

- إنما يتـقبل الله من المتـقين. لئن بسطت إلي يدك لتـقتلنى مـا أنا

بباسط يدي إليك لأقتلك، إنى أخاف الله رب العالمين، إنى أريد أن تبــوء بإثمى وإثمـك فـتكـون من أصـحــاب النار، وذلك جــزاء الظالمين).

وهكذا مـا امــتلكتــه ثورة الغــضب، والغـضب من الـشـيطان، والشيطان من النار، (فطوعت له نفسه قتل أخـيه فقتله، فأصبح من الخاسرين). «٢٧:٣٠: المائدة».

فـالقصـة عـرض للإنسـانية بشطـريها: الطيب والخـبـيث، وعلي وجهيها المشرق والمظلم، وفي جانبيها: الملائكى والشيطانى، فالحسد والغيرة وغريزة التملك، والغريزة الجنسية علة التنافس فيها، وسبب احتـدام الصراع بين الأخوين، إذ اندلـعت الشرارة، وشب ضرامـها وتأجج أوراها في صـدر قابيل، وكـانت الفتنة، ووقـعت الخطيـئة، وأريقت الدماء فكان الهلاك والبوار.

من أجل ذلك حث القرآن الكريم - الناس علي التنافس الشريف في عمل الخـيرات والتمسك بالقـيم الإنسانية العليـا، واتباع المنهج الرباني في الحـياة، سواء في عـلاقتهـم بالله تعالي أو في عـلاقاتهم الدنيـوية والأسـرية حـتي يفـوزوا بمـغفـرة الـله ورضـوانه ويحظوا بدخـول الجنة التي أعـدت لهم. (فـاسـتـبـقـوا الخـيـرات، إلي الله مرجـعكم جمـيعا، فـينبئكم بما كنتم فـيه تختـلفون). «٤٨: المائدة» (ولكل وجهة هو موليـها، فاستبقوا الخـيرات). «١٤٨ البقرة». (إن الأبرار لفي نعـيم علي الأرائك ينظرون، تعرف فـي وجههم نـضرة النعيم، يسقون من رحيق مختـوم ختامه مسك، وفي ذلك فليتنافس

المتنافسون). «٢٢-٢٦: المطففين». (سابقوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها كعرض السماء والأرض، أعدت للذين آمنوا بالله ورسله، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم) «٢١:الحديد».

فنفوس هؤلاء الملأ أمارة بالسوء تشتهى الشهوة لذاتها سواء كانت الجنس أو الطعام أو الشراب أو الغنى أو الخيل المسومة، أو التسلط أو الغطرسة أو الظلم، وكل أولئك من شهوات الحياة.

فأول جريمة قتل عرفتها البشرية، كانت في نفس «قابيل» الأمارة بالسوء (واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق، إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما، ولم يتقبل من الآخر، قال لأقتلنك. قال: إنما يتقبل الله من المتقين، لئن بسطت إلي يدك لتقتلنى ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك، إنى أخاف الله رب العالمين، إنى أريد أن تبوء بإثمى وإثمك فتكون من أصحاب النار، وذلك جزاء الظالمين، فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله، فأصبح من الخاسرين). «٢٧ - ٣٠: المائدة».

(ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق، ومن قتل مظلوما فقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف في القتل، إنه كان منصوراً). «٣٣: الاسراء».

فالنفس الشهونية إذن هي التي تشتهى كل ملذات الحياة، والشهوة الجنسية تمثل الحد السلبي لهذه النفس، وإن امرأة العزيز التى وقعت تحت تأثيرها إذ راودت يوسف عن نفسه، قد اعترفت بجريرتها، بعد أن اتهمته بالتعدي عليها، وأقرت بأن النفس أمارة بالسوء قال

تعالي: (وما أبرئ نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربى). «٥٣: يوسف».

فدافع الجنس ودافع الظلم ودافع التملك من الدوافع النفسية الغريزية والفطرية، والمكتسبة من البيئة والثقافة والمجتمعات، فالإنسان يتعلم من الثقافة التي ينشأ فيها، ومن الحضارة التى يعاصرها، ومن خبراته الشخصية - يتعلم حب التملك في المال والعقارات والأراضي والممتلكات المختلفة التي تحقق له عيشة رغدة، وتؤمنه من الفقر والفاقه، وتمده بالنفوذ والجاه والقوة في المجتمع يقول الله تعالى: (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث، ذلك متاع الحياة الدنيا، والله عنده حسن المآب). «١٤: آل عمران».

(وتحبون المال حبا جما). «٢٠: الفجر».

(المال والبنون زينة الحياة الدنيا). «٤٦: الكهف».

(اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد). «٢٠: الحديد».

فهؤلاء المترفون والمنعمون قد استقرت حياتهم علي الدعة ورغد العيش، والاستمتاع بملذات الحياة وطيباتها، إنهم قد خلدوا إلي الراحة والنعيم والطمأنينة إلي ماهم عليه من حال، فإذا جاءهم ما يغير حياتهم قاوموه، وإذا وفد إليهم من يبدل أوضاعهم وقفوا في وجهه - وهم يعلمون أنه علي حق - لأنهم لا يضمنون بقاء العز

والجاه والسلطان في الحياة الجديدة الوافدة إليهم. (بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين، ولما جاءهم الحق قالوا: هذا سحر وإنا به كافرون). «٢٩ - ٣٠ الزخرف»

(بل متعنا هؤلاء وأباءهم، حتى طال عليهم العمر، أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون . «٤٤: الأنبياء»

(حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب، إذا هم يجئرون، لا تجئروا اليوم، إنكم منا لا تنصرون، قد كانت آياتى تتلى عليكم، فكنتم على أعقابكم تنكصون، مستكبرين به سامرا تهجرون) «٦٤ - ٦٧: المؤمنون».

أما الفقراء والضعفاء من عامة الناس والدهماء منهم، فهم أكثر انقيادا وأكثر استجابة للدعوات الجديدة، لأنهم دائما يتطلعون إلى مستوى أفضل مما هم عليه، وسرعان ما يؤثر عليهم سادتهم وكبراؤهم فيضلون السبيل، حتى إذا ما التقوا بهم يوم الحشر - فزعوا إليهم يسألونهم العون والمدد فى دفع هذا البلاء عنهم: قد كنا لكم تبعا، لقد كنا رعية لكم وأداة طيعة فى أيديكم، هيا ادفعوا عنا بعض هذا العذاب الذى نعانى منه الآن.

(وبرزوا لله جميعا، فقال الضعفاء للذين استكبروا:

- إنا كنا لكم تبعا. فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شىء)

فيرد عليهم سادتهم وكبراؤهم (قالوا):

- لو هدانا الله لهديناكم، سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص.

ويتدخل الطرف الثالث بينهما، حين ينتهى الموقف إلى اليأس القاتل وحين يطلبون منه النجدة والوفاء بوعده، فينكث عهده معهم، وينقض عقده المبرم بينهم (وقال الشيطان لما قضى الأمر):

- إن الله وعدكم وعد الحق.. ووعدتكم فأخلفتكم، وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى، فلا تلومونى ولوموا أنفسكم، ما أنا بمصرخكم، وما أنتم بمصرخىّ، إنى كفرت بما أشركتمونى من قبل، إن الظالمين لهم عذاب أليم) «٢١ - ٢٢: إبراهيم»

(وقالوا: ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا) «٦٧: الأحزاب»

(ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم، يرجع بعضهم إلى بعض القول، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا:

- لولا أنتم لكنا مؤمنين.

(قال الذين استكبروا للذين استضعفوا:)

- أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم، بل كنتم مجرمين،.

وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا:

- بل مكر الليل والنهار، إذ تأمروننا أن نكفر بالله، ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب، وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون؟). «٣١ -٣٣: سبأ»

(وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها، وما يمكرون إلا بأنفسهم وما يشعرون). «١٢٣: الأنعام»

(وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إن بما أرسلتم به كافرون) ـــ ٣٤ سبأ.

نخلص من هذا العرض بأن القصة القرآنية التى تعنى بالأحداث والمواقف الواقعية، هى القصة التى تعنى بالتحليل النفسى للأشخاص والأبطال، وهذا النوع من القصص له خطره وأثره فى الوعى الإنسانى والقومى لأنه مستقى من الأحداث الواقعية نفسها، وبيان ذلك أن هناك شخوصا يعيشون واقعهم راضين أو ساخطين، فيتطرق التحليل النفسى لكل شخصية ليكشف دوافع السلوك فيها، على حسب العوامل النفسية التى يقتضيها الموقف أو مجموعة المواقف، حتى يصل التحليل إلى ماهية النفس وخباياها على ضوء هذه الأحداث وتلك المواقف.

ولم يقتصر الفن القصصى القرآنى على ذلك، بل تعداه إلى كشف النفوس السوية وغيرالسوية وقسمها إلى: النفوس الأمارة بالسوء، والنفوس المطمئنة، والنفوس الذكية، والنفوس اللوامة والنفوس الباطنية.

ومن النماذج النفسية التى تتكرر على مدى الأزمان، نموذج النفس التى غلبت عليها شقوتها، واستعلت عليها الغطرسة، وتملكتها دوافع العناد والاستكبار فتصلبت حتى استغلق فهمها، وأخذتها العزة بالإثم، إنها شريحة فى المجتمعات، تتلوّن كالحرباوات لتواكب السلطان حتى يتخذ منها بطانته، إنهم الملأ، وما من آية فى القرآن الكريم إلا وصورتهم تصويرا ينبىء عن

فساد نفوسهم، حريصين على منافعهم الشخصية، ومكاسبهم الذاتية متبلدين فى أحاسيسهم ومشاعرهم، منغمسين فى شهواتهم وملذاتهم، سامدين غافلين فى صلف وكبرياء (ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى، إذ قالوا: لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا: وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبناءنا، فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم، والله عليم بالظالمين). «٢٤٦: البقرة».

(قال الملأ من قومه: إنا لنراك فى ضلال مبين). «٦٠: الأعراف»

(قال الملأ الذين كفروا من قومه: إنا لنراك فى سفاهة). «٦٦: الأعراف».

(قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا). «٧٥: الأعراف»

قال الملأ الذين استكبروا من قومه: لنخرجنك يا شعيب والذين أمنوا معك من قريتنا، أو لتعودن فى ملتنا). «٨٨: الأعراف»

(قال الملأ من قوم فرعون: إن هذا لساحر عليم). «١٠٩: الأعراف»

(فقال الملأ الذين كفروا من قومه: ما نراك إلا بشرا مثلنا). «٢٧: هود»

(ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه) . «٣٨: هود»

(قال: يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين(. «٢٠: القصص»

(فما أمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملإيهم أن يفتنهم). «٨٣: يونس»

(ثم بعثنا من بعدهم موسى بأياتنا إلى فرعون وملإيه، فظلموا بها). «١٠٣: الأعراف»

(إلى فرعون وملإيه فاستكبروا وكانوا قوما عالين). «٤٦: المؤمنون».

(وقال الملأ من قوم فرعون: أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض، ويذرك وألهتك قال: سنقتل أبناءهم ونستحيى نساءهم، وإنا فوقهم قاهرون». «١٢٧: الأعراف»

(وقال فرعون: يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى). «٣٨: القصص»

والنوع الثانى من أنواع النفوس التى حللها القصص القرآنى، هى النفس المطمئنة، النفس المؤمنة التى لا يستبد بها القلق فى أية حالة من حالاتها، فى السراء والضراء، إنها مستقيمة أبدا على الصراط راضية بما قسم الله لها، شاكرة حامدة، وفى الضراء صابرة راضية أيضا، فلا تجزع ولا تسخط، فلا الغنى يطغيها، ولا الفقر يقعسها ويعدل بها عن الاطمئنان إلى قضاء الله وقدره الصنف من النفوس لا يوجد إلا فى المؤمنين بالله والمتوكلين عليه، والمفوضين أمورهم إليه، فهم راضون فى أكمل حالات الرضا، ومرضيّ عنهم من

ربهم، لأنهم قدموا أعمالا طيبة رضى الله عنها (لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم، فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا). «١٨ : الفتح».

(يا أيتها النفس المطمئنة، ارجعى إلى ربك راضية مرضية). «٢٧ - ٢٨ : الفجر».

(قال الله، هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم، لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا، رضى الله عنهم ورضوا عنه، ذلك الفوز العظيم). «١١٩ : المائدة».

(والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه). «١٠٠ : التوبة».

(يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولا). «١٠٩ : طه».

(رضى الله عنهم ورضوا عنه، أولئك حزب الله). «٢٢ : المجادلة».

(رضى الله عنهم ورضوا عنه، ذلك لمن خشى ربه). «٨ : البينة».

(ليدخلنهم مدخلا يرضونه وإن الله لعليم حليم). «٥٩: الحجر».

(فهو فى عيشة راضية، فى جنة عالية). «٢١ : الحاقة».

(وجوه يومئذ ناعمة، لسعيها راضية). «٩ : الغاشية».

(فأما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية). «٧ : القارعة».

(خالدين فيها وأزواج مطهرة، ورضوان من الله). «١٥ : آل عمران».

(واتبعوا رضوان الله، والله ذو فضل عظيم). «١٧٤ : آل عمران».

(يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم). «٢١ : التوبة».

(وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن ورضوان من الله أكبر، ذلك هو الفوز العظيم). «٧٢ : التوبة».

(محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار، رحماء بينهم، تراهم ركعا سجدا، يبتغون فضلا من الله ورضوانا، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود). «٢٩ : الفتح».

(يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم). «١٦ : المائدة».

(ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله والله رءوف بالعباد). «٢٠٧ : البقرة».

(ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجرا عظيماً). «١١٤: النساء».

(ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتا من أنفسهم، كمثل جنة بربوة أصابها وابل فأتت أكلها ضعفين). «٢٦٥ : البقرة».

وجاء فى تفسير الرازى فى قوله تعالي: (يا أيتها النفس المطمئنة

ارجعي إلى ربك راضية مرضية) الاطمئنان هو الاستقرار والثبات، وفيه أن تكون النفس متيقنة بالحق، ونظيره قوله تعالي: (ولكن ليطمئن قلبي). «٢٦٠ : البقرة».

وقوله تعالى : (ألا بذكر الله تطمئن القلوب). «٢٨ : الرعد».

وقد ثبت أن كل من آثر معرفة الله لشيء غير الله فهو غير مطمئن، وليست نفسه نفسا مطمئنة، أما من آثر معرفة الله لا لشيء سواه، فنفسه هي النفس المطمئنة، وكل من كان كذلك كانا أنسه بالله وشوقه إلى الله وبقاؤه بالله وكلامه مع الله. والمعني: ارجعي ثواب إلى ربك، فادخلى فى عبادى، أى ادخلى فى الجسد الذى خرجت منه، «وادخلى جنتي».

والنوع الثالث هو النفس اللوامة، إنها النفس التى لم تزل تلوم على فعلها الذى خرجت به من الجنة، إنها نفس آدم التى استشعرت الخطيئة الأولى عندما عصى آدم ربه، ومن هذا الاستشعار المستمر، نبع اللوم المستمر. (١)

ومن ذلك النوع «النفس الباطنة» وهى التى تحوى فى داخلها أشياء، وأن تتحدث داخليا بكلام لها فقط، إنها مستودع السر الذى يكتمه الإنسان عن الآخرين، وقد عبر عنها القصص القرانى وأبان إدارة حوارها الداخلى بين ذات الإنسان ونفسه، وتبينت النوايا التى لا يرغب الإنسان أن يطلع أحد عليها، وهذا ما يسميه علم النفس

---

(١) أنظر: نصوص قرآنية فى النفس الإنسانية : ص ١٢٧ د. عز الدين اسماعيل

الحديث «بالشعور الباطن» (لا أقسم بيوم القيامة، ولا أقسم بالنفس اللوامة)، «١ - ٢: القيامة». وجاء فى تفسير «الكشاف للزمخشري» هى النفس المتقية التى تلوم النفوس فى يوم القيامة على تقصيرهن فى التقوي، أو بالتى لاتزال تلوم نفسها وإن اجتهدت فى الاحسان، وعن الحسن: إن المؤمن لا تراه إلا لائما نفسه، وإن الكافر يمضى قدما لا يعاتب نفسه. وقيل: هى التى تتلوم يومئذ على ترك الازدياد إن كانت محسنة، وعلى التفريط إن كانت سيئة.

ويقول الرازى المراد بالنفس اللوامة هى نفوس الأشقياء حين تشاهد أحوال القيامة وأهوالها، فإنها تلوم نفسها على ما صدر عنها من المعاصي، ونظيرة قوله تعالي: (أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله وإن كنت لمن الساخرين). «٥٦ : الزمر». وجاء أيضا أن الإنسان خلق ملولا، فأى شيء طلبه إذا وجده مله، فحينئذ يلوم نفسه على أنه لم طلبه ؟؟ ونظيره قوله تعالي: (إن الإنسان خلق هلوعا، إذا مسه الشر جزوعا، وإذا مسه الخير منوعا). «١٩ - ٢١ : المعارج».

أما النفوس الباطنة فقد حللها القرآن الكريم وأبان قدرة الله عليها فيما تخفى وما تعلن، فسلطان الله مشهود لها فى كل حال، فإذا كانت لا تجاهر بالمنكر أمام الناس، فكيف تجاهر بالمعاصى أمام الله؟؟ فليس هناك سر بالنسبة إلى الله سبحانه (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به، ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار). «١٠ : الرعد».

(ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير) . «١٤ : الملك».

(أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم، بلى ورسلنا لديهم يكتبون). «٨٠ : الزخرف».

(وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون). «٧٤ : النمل».

(ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما تسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد). «١٦ :ق».

(وأسروا قولكم أو اجهروا به. إنه عليم بذات الصدور). «١٣ : الملك».

(أفلا يعلم إذا بعثر ما فى القبور وحصل ما فى الصدور إن ربهم بهم يومئذ لخبير). «٩ - ١١ : العاديات».

واللوحة النفسية التالية تجسد نموذج الإنسان الجبان الرعديد الذى لا يعرف ربه إلا إذا مسته الضراء، واجتاحته البأساء، فيتضرع إليه، ويفزع إليه حيث لا ملجأ إلا إليه، ويهرع إلى ساحته إذ لا معين سواه، فإذا ما كشف الله عنه الضر، وأزال الغم، فالصحة موفورة والسعادة قائمة، رجع إلى ما كان عليه من النسيان، والغفلة واللعب والطغيان، هؤلاء مرضى النفوس، تتناقص نوازعهم وتتصارع طبائعهم ولا هم لهم إلا مصالحهم وتحقيق لذاتهم ورغباتهم، إن الآيات التالية تكشف عن أنانيتهم وتفضح أثرتهم (إن الإنسان خلق هلوعا، إذا مسه الشر جزوعا وإذا مسه الخير منوعا). «١٩ - ٢١ : المعارج».

(ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير، لقضى إليهم

أجلهم، فنذر الذين لا يرجون لقاءنا فى طغيانهم يعمهون). (وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون). «١١ - ١٢ : يونس».

(وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من تدعون إلا إياه، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم، وكان الإنسان كفوراً). «٦٧ : الإسراء».

(فإذا مس الإنسان ضر دعانا، ثم إذا خولناه نعمة منا قال: إنما أوتيته على علم، بل هى فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون). «٤٩ : الزمر».

(وإذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين إليه، ثم إذا أذاقهم منه رحمة، إذا فريق منهم بربهم يشركون). «٣٣ الروم».

«أما التناسق الفنى فهو فى تلك الإطالة فى صور الدعوة عند الضر، (دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما) ثم فى ذلك الإسراع عند كشف الضر، (مر كأن لم يدعنا إلى ضر مسه). إن هاتين الصورتين تمثلان بالضبط وقوف التيار عن الجريان أمام الحاجز القوى، فقد يطول هذا الوقوف ويطول، فإذا فتح الحاجز، تدفق التيار فى سرعة، ومر كأنه لم يقف قبل أصلا» (١)

واللوحة النفسية التالية تصور دافع الظهور والسيطرة عند بعض الناس فلا علم عندهم ويدعون إتيانه، ولا حجة لديهم ويزعمون

(١) التصوير الفنى فى القرآن الكريم ص ١٧٦ . سيد قطب

أنهم على حق، يجمع الواحد منهم كثيرا من الضلالات ويتصعب على أنها صحيحة، وهو فى الحقيقة جاهل بالكون الذى يعيش فيه، وجاهل بالمجتمع وطبائع الناس فيه. وعلى ذلك يجادل فى الحق، ويدفعه بيديه ويتشدق لسانه بالباطل يردده كالببغاء الذى لا يعى ما يقول، (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، ثانى عطفه ليضل عن سبيل الله، له فى الدنيا خزي، ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق). «٩ : الحج».

إنه يميل بجنبه مصعرا خده يتهادى عجبا وكبرا واستنكافا أن يسمع دعوة الحق، ويوليها ظهره إمعانا فى الغطرسة والكبر، ومبالغة فى العناد والكفر، ليشبع رغبته فى حب الظهور بالعلم - المفترى عليه - ويجب ان يحمد بما ليس فيه (لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب، ولهم عذاب أليم) . «١٨٨ : آل عمران».

☆ ☆ ☆

واللوحة التالية تصور حال المنافقين وتكشف سماتهم التى تتعلق بالعبارات والمعاملات، وخصص القصص القرآنى سورة خاصة بهم هى سورة «المنافقون» إن هذه الفئة من الناس من ضعاف الثقة بأنفسهم، ضعاف الشخصية والعزيمة، يتسمون بالرياء والجبن والكذب، والبخل والنفعية والانتهازية، والخوف من المسلمين والمشركين، لا يقاتلون ولا يقومون للصلاة إلا وهم كسالي، إنهم يعجزون عن اتخاذ القرار ويترددون بين الكفر والإيمان.

إن الصورة التى رسمها القصص القرآنى لشخوص المنافقين صورة دقيقة حسية، تنطق بدقة عن طبائعهم، وتوضيح سماتهم التى يتميزون بها، والصورة الكلية لهؤلاء المنافقين تتجسد فى قوله تعالي: (وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم، وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة، يحسبون كل صيحة عليهم.. هم العدو فاحذرهم - قاتلهم الله أنى يؤفكون) «٤٦ : المنافقون». إنهم يظنون أن المسلمين يريدون أن يبطشوا بهم وذلك نتيجة لما يضمرونه من شعور عدائى للمسلمين، فيقومون بإسقاط هذا الشعور العدائى عليهم، وهم يلجئون إلى الحيل العقلية وقاية لأنفسهم وحماية لها، إنهم يبررون دوافعهم وأفعالهم المستهجنة بأن يعطوها تفسيرا محاولين أن يكون مقبولا. (وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا: إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون، ولكن لا يشعرون). «١١ - ١٢: البقرة».

(وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا، فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم، ثم جاءوك يحلفون بالله، إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقا، أولئك الذين يعلم ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا). «٦١ - ٦٣: النساء».

واللوحة تكشف ستر نفاقهم، وتعرى دهانهم، وتظهر اللوجه الآخر الذى يبطونه وراء كلماتهم المنمقة وعباراتهم المزينة التى تنطق بها ألسنتهم المعسولة، وتفيض حناجرهم بكلمات الرقة

والحنان والمودة وهى فى الحقيقة تنفث قيحا وصديدا، وتفور زفيرا وفحيحا (ومن الناس من يعبجك قوله فى الحياة الدنيا، ويشهد الله على ما فى قلبه، وهو ألد الخصام، وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل، والله لا يحب الفساد، وإذا قيل له: اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد). «٢٠٤ - ٢٠٦: البقرة».

والشريحة التالية تفضح سلوكهم وتجسم بطئهم وتنافلهم حينما دعوا إلى القتال، وسمعوا نفير الحرب، وجد الجد، واشتد المد، سفلت طبيعتهم وتلبثوا وتعللوا وانتحلوا المعاذير، حتى فاتهم ركب الجهاد فى غزوة الأحزاب التى استعدت لها قريش أيما استعداد، حيث تعاقدت مع اليهود وتحالفت مع المنافقين لقتال المسلمين، إنهم حرصوا جميعا على حرب المسلمين، ووضعوا الخطة على أن يأتوا المسلمين من ظهورهم إذا التحم الجشيان، وحفر المسلمون الخندق حول المدينة، وأقبلت قريش بفضها وقضيضها فى عشرة آلاف مقاتل من أجياشهم، وطال انتظار قريش أمام الخندق، وعبر عمرو بن ود خندق المسلمين، وهو من أعظم فرسان العرب المعدودين، حتى عدوه بألف فارس، وطالب المبارزة، فتصدى له على - كرم الله وجهه - فأشفق النبى - صلى الله عليه وسلم - على علي، لأنه كان فى العشرين من عمره، ولم يستكمل قوته بعد، وما هى إلا جولة أو جولتان حتى اختلفا وقتل على هذا الكافر

الصنديد وكبر المسلمون وهللوا، واهتـزت أرجاء المدينة، وغمر البشر والـفرحة أهلها، واغتـم المشركون واليهـود وعلاهم الخزى والبوار.

وحـينئـذ تكشـفت للمـسلمين وجـوه أهل النفـاق، ونزلت آيات القرآن الكريم توضح موقفهم فـى ساعة العسرة، وأرسل الله رسله وجنوده فى المعركة، إذ هبت ريح عاصفة على معسكر المشركين فى ليلة شـديدة البـرد، فاقـتلعت خـيـامـهم وأطفأت نيـران قـدورهم، وأطلقت الإبل والخـيل من مرابطهـا، وانتصر المسلمـون «بالرعب» يقـول الله سـبحـانه وتعـالى فى هذه اللوحـة: (يا أيهـا الذين آمنوا اذكروا نعـمة الله عـليكم، إذ جاءتكم جنود فـأرسلنا عليهم ريـحا وجنودا لـم تروها، وكـان الله بما تعـملون بصـيـرا، إذ جـاءوكم من فـوقكـم ومن أسـفل منكـم، وإذ زاغت الأبصـار وبلغـت القلوب الحناجر وتظنون باللـه الظنونا، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا)، وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجـعوا، ويستأذن فـريق منهم النبى يقولون: إن بيوتنا عـورة، وما هى بعورة، إن يريدون إلا فـرارا، ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها وما تلبثوا بهـا إلا يسيرا، ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار، وكـان عهد اللـه مسئولا، قـل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل، وإذا لا تمتعون إلا قليلا، قل من ذا الذى يعـصمكم من الله إن أراد بكم سـوءا أو أراد بكم رحـمة،

ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيراً، قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلم إلينا، ولا يأتون البأس إلا قليلا، أشحة عليكم، فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت، فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أشحة على الخير، أولئك لم يؤمنوا، فأحبط الله أعمالهم، وكان ذلك على الله يسيرا، يحسبون الأحزاب لم يذهبوا، وإن يأت الأحزاب يودوا لو أنهم بادون فى الأعراب، يسألون عن أنبائكم ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلا، لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا). «٩-٢١ : الأحزاب».

رسمت اللوحة الفنية صورتين نفسيتين: الأولى حالة المنافقين وهم حريصون على منفعتهم طمعا وجشعا لما فى يد المجاهدين من غنائم وأنفال فى حالة نصرهم على أعدائهم، فيبررون سبب مشاركتهم المسلمين فى القتال، ويتعللون فى حالة الهزيمة - للرسول بإن بيوتهم مكشوفة مهددة بمن يعتدى عليها، حتى يستروا نفاقهم وضعف شخصياتهم، وآخرون منهم دعوا إلى الردة وأذاعوها فى المقاتلين لتيئيسهم وزعزعة إيمانهم (يا أهل يثرب لا مُقام لكم فارجعوا) ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة، وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا). «١٣ : الأحزاب» فرجعوا، ومنهم من لم يستأذن النبي، ولم يراجعوا أنفسهم، ولم يلتفتوا إلى عاقبة أمرهم، ولم يتدبروا نتيجة فعلتهم.

ولم يقفوا عند هذا الحد، بل كان منهم المعوقون الذين أمسكوا غيرهم عن الخروج وحرضوهم على التقاعس، وزينوا لهم القعود مع القاعدين.

وسواء كان المنافقون قاعدين أو مذبذبين من أو مارقين، أو راجعين مستأذنين وغير مستأذنين، فإنهم جميعا لا إيمان لهم، قد نقضوا عهد الله من قبل، إذ دخلوا فى دين الله، وما قول رسول الله صلى الله عليه وسلم.

إن هؤلاء المنافقين نموذج من الخسة والسفالة، قد حذر الله تعالى - رسوله منهم (هم العدو فاحذرهم، قاتلهم الله أنى يؤفكون). «٤ : المنافقون» و ما أكثر الآيات القرآنية التى فضحتهم وكشفت نواياهم وأبانت سلوكهم، يوم يكون النصر والغلبة للمسلمين المجاهدين، تراهم ينظرون إلى ما فى أيديهم من غنائم وأنفال ويقول قائلهم: (يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما). «٧٣ : النساء». وإذا كانت الأخرى فرحوا وحمدوا لأنفسهم هذا الموقف المتخاذل ويقول قائلهم: (قد أنعم الله على إذ لم أكن معهم شهيدا). «٧٢ : النساء».

إنهم فى نكوصهم وتخاذلهم وتقاعسهم عن القتال، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون، وكأن أقدامهم قد شدت بثقل لا تستطيع الفكاك (وإن منكم لمن ليبطئن). «٧٢ : النساء». فاللفظة موحية بالتثاقل والتعثر وعدم الخروج مع سبق الإصرار « وإن اللسان ليتعثر فى حروفها وجرسها حتى يأتى على آخرها، وهو يشدها شدا،

وإنها لتصور الحركة النفسية المصاحبة لها تصويرا كاملا، وإن الجملة كاملة تشى بأن هؤلاء المبطئين يزاولون عملية التبطئة غير منقوصة، ويصرون عليها إصرارا، ويجتهدون فيها اجتهادا، ولذا حوت شتى المؤكدات (إن - لمن - يبطئن) مما يوحى بشدة إصرار هذه المجموعة على التبطئة وشدة أثرها فى الصف المسلم، وشدة ما يلقاه منها». (١)

وإن الطائفة التالية من الآيات الكريمة قد نزلت فى شأنهم، لأن خطرهم أشد من خطر الكفار أو اليهود، لاتستقر وجوههم على حالة واحدة، ولا تستكن قلوبهم المخادعة، إنهم يبشون ويهشون ويضمرون ويبيتون (الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم، وإن كان للكافرين نصيب قالوا: ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين). «١٤١ : النساء» . (بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما، الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين، أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا). «١٣٨ - ١٣٩ : النساء».

(إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس، ولا يذكرون الله إلا قليلا، مذبذبين بين ذلك، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا). «١٤٢ - ١٤٣ : النساء». (ومن الناس من يقول آمنا بالله

(١) فى ظلال القرآن : المجلد الثانى ص ٥٠٧ سيد قطب

واليوم الآخر، وما هم بمؤمنين، يخادعون الله والذين آمنوا، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون، فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا، ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون، وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض، قالوا: إنما نحن مصلحون، ألا أنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا: أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعملون، وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا: إنا معكم، إنما نحن مستهزئون، الله يستهزيء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون).
«٨ - ١٥ : البقرة».

☆ ☆ ☆

أما الصورة النفسية الأخرى فهى خاصة بالمؤمنين، وقد أحاط بهم الأعداء من كل جانب من فوقهم ومن تحتهم من «نجد» ومن «تهامة» وقد أطبقوا عليهم من كل جهة فتمكنوا منهم، وسدوا منافذ النجاة عليهم، فالصورة مرسومة رسما دقيقا لحالة الفزع والخوف التى استولت على المسلمين حتى اضطرب تفكيرهم ولم يتبينوا أمرهم، وبلغت قلوبهم حناجرهم من جراء هذا الكرب والاضطراب والخفقان، وزاغت أبصارهم بسبب مازلزلوا فى هذا الابتلاء الشديد والامتحان القاسى الذى لا يصبر عليه أحد، ولا يخلص منه إلا من رحمة الله.

وبالرغم من ذلك لم يهنوا ولم يضعفوا ولم يستكينوا، بل

صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فالموت فى سبيل الله من أسمى أمانيهم، والله غايتهم والرسول زعيمهم والقرآن دستورهم، ولهذا فإنهم حين رأوا الأحزاب رأوا فيهم تحقيق ما وعدهم به الله ورسوله «وصدق الله ورسوله» (ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله، وصدق الله ورسوله، وما زادهم إلا إيمانا وتسليما، من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر، وما بدلوا تبديلا، ليجزى الله الصادقين بصدقهم، ويعذب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم، إن الله كان غفورا رحيما، ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا، وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قويا عزيزا، وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم، وقذف فى قلوبهم الرعب، فريقا تقتلون وتأسرون فريقا، وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطؤوها، وكان الله على كل شيء قديرا). «٢٢ - ٢٧ : الأحزاب».

لقد نصر الله المؤمنين - بالرعب - إذ أرسل الله ريحا صرصرا عاتية، أطفأت نيران الأحزاب وأكبت قدورهم، واقتلعت خيامهم، فهرعت خيولهم، وفزعت نوقهم، ودب اليأس فى قلوبهم وسكن الرعب أفئدتهم، فتركوا كل شيء غنيمة للمسلمين، وكفى الله المؤمنين القتال.

المنهج الحسى والتجريدى

لقد زود الله الإنسان بكل الإمكانات والوظائف الضرورية التى تؤهله للحياة والخلافة لهذه الأرض، وجهزه بجهاز الدوافع والانفعالات، ومنحه الحواس التى يتم عن طريقها الإدراك الحسى كالسمع والبصر والشم والذوق والحواس الجلدية، ثم خصه بوظيفة إدراكية أخرى تفوق المدركات الحسية الملموسة، تميز بها عن سائر المخلوقات، فحمل أمانة العقل (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان، إنه كان ظلوما جهولا). «٧٢: الأحزاب».

بذلك العقل ارتقى الإنسان من المحسوسات إلى المعانى المجردة فأصبح يفكر فى الخير والشر والفضيلة والرذيلة، والحق والباطل، والمبادىء العاملة وحقوق الآخرين، والاستدلال من بدائع خلق الله تعالى للكون والطبيعة على وجود الخالق وقدرته الفائقة.

فالحواس إذن وسيلة الإدراك الحسي، والعقل وسيلة الإدراك المعنوى وكلتا الوسيلتين يستعين بهما الإنسان فى الوصول إلى الحقائق والمعرفة، وقد أشار القرآن الكريم إلى المنهج الحسى فى آيات كثيرة (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون). «٧٨ : النحل». ففى خلق السمع والبصر والفؤاد ما يفتح للعقل أن يرى ويتعلم ويستدل على مظاهر قدرة الله وعلمه وحكمته، وقال تعالى (وهو الذى أنشألكم السمع والأبصار والأفئدة، قليلا ما تشكرون).

«٧٨ : المؤمنون». ولازم الفائدة هنا تقديم الإنشاء وهو الخالق العام للإنسان - على إيجاد السمع والبصر والفؤاد.. إذ أن الوجود الإنسانى مقدم على ظهور هذه الحواس فيه، وتقديم حاسة السمع على البصر، لأن حاسة السمع تسبق حاسة الإبصار عند مولد الطفل، والسمع أهم من البصر فى عملية الإدراك الحسى والتعليم وتحصيل العلوم، وقدم السمع والبصرة على الفؤاد - وهو العقل لأنه لا يكون للإنسان إدراك أو تمييز إلا بعد أن تعمل حواسه كلها وتؤدى وظائفها وتتوثق الصلات بينها وبين خلايا المخ.

ولما كانت العلاقة وثيقة بين السمع والعقل قرن القرآن بينهما فى كثير من الآيات (قالوا: لو كنا نسمع أو نعقل، ما كنا فى أصحاب السعير). «١٠ : الملك». واستعمل القرآن الكريم السمع بمعنى التعقل والتدبير والفهم والإدراك قال تعالي: (إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم، أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون). «٥١ : النور». وقال جل شأنه: (ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا). «١٩٣: آل عمران». (وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به). «١٣ : الجن». (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع، مما عرفوا من الحق، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين). «٨٣ : المائدة». (ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون). «١٠٠: الأعراف».

ولما كان السمع لا ينام كما تنام حاسة الإبصار إذ تتوقف عن أداء وظيفتها حين يغمض الإنسان عينيه ويروح فى سبات عميق، لذا قد

ضرب الله على آذان أهل الكهف حتى استغرقوا فى نومهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعا، (فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عددا). «١١ : الكهف».

وحاسة السمع تسمع فى كل الأوقات سواء فى الضوء أوالظلام، بينما حاسة البصر لا ترى إلا فى الضوء، وحاسة السمع أيضا تستقبل الأصوات الصادرة من جميع الجهات، بينما العين لا ترى إلا إذا اتجه الإنسان ببصره نحو الشيء الذى يريد أن يراه [1] لذا ورد السمع فى القرآن مفردا، بينما ورد البصر فى معظم الآيات جمعا. وذلك من أدلة الإعجاز فى أسلوب القرآن.

وقد أشاد القرآن الكريم بوظيفة العقل وقدرته على التفكير والتنظير والبحث فى الأشياء والأحداث، واستخلاص الكليات من الجزئيات، واستنباط النتائج من المقدمات، واكتشاف الحقائق والمعلومات، ودعا دعوة صريحة إلى استعمال هذا العقل وإلى النظر والتدبر فى خلق السموات والأرض، وفى جميع الظواهر الكونية (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق). «٢٠ : العنكبوت». (أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء). «١٨٥ : الأعراف». (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر

(١) القرآن وإعجازه العلمى ص ١٠٩ محمد اسماعيل ابراهيم

بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون). «١٦٤ : البقرة». (وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء، فأخرجنا منه خضرا، نخرج منه حبا متراكبا، ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب، والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه، إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون). «٩٩ : الأنعام».

والمنهج التجريدى حافل بالبحث على التفكير فى ذات الإنسان وفى أسرار تكوينه البيولوجى والنفسي، فإن فى الأنفس عالما رحيبا وكونا فسيحا، وإنه ليكفى أن يقيم الإنسان بصره على مسيرته فى الحياة، ومن وجوده نطفة إلى أن صار رجلا (فلينظر الإنسان مم خلق، خلق من ماء دافق، يخرج من بين الصلب والترائب). «٥ - ٧ : الطارق». (وفى أنفسكم أفلا تبصرون).؟ «٢١ : الذاريات» (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق). «٥٣ : فصلت». (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاما، فكسونا العظام لحما، ثم أنشأناه خلقا آخر فتبارك الله أحسن الخالقين). «١٢ - ١٤ : المؤمنون».

ولما كانت حاسة اللمس لا تقل أهمية عن حاستى السمع والبصر، إذ هى متخصصة لاستقبال أنواع معينة من الإحساسات كالبرودة والحرارة والضغط والألم واللذة، فقد تمركزت فى الجلد فهو حاسة الإحساس فى الإنسان، ولذا كان العذاب الأخروى

واقعا عليه، وجعلت النار التى تشويه أشبه بثوب من النار ذاتها، كما بلى هذا الثوب تجدد ثواب آخر ليذوقوا العذاب (إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم نارا، كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب، إن الله كان عزيزا حكيما). «٥٦ : النساء».

وأشارت الآية التالية إلى حاسة اللمس كأداة يستعين بها الإنسان لتحسس الأشياء أو التعرف عليها (ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس فلمسوه بأيديهم، لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين). «٧ : الأنعام». فهم على الرغم من ذلك كله مصرون على الكفر والضلال والعناد والتحدي، فقد ركبوا رءوسهم، واتبعوا أهواءهم، واعتصموا بغيهم وضلالهم، فهم لن يؤمنوا أبدا ولو نزل على الرسول - صلى الله عليه وسلم- كتاب من السماء مكتوب فى قرطاس يرونه بحاسة العين، ويسمعون حفيف أوراقه بآذانهم ويلمسونه بأيدهم وأصابعهم.

والجلد هو الثوب الذى يكسو الكيان الإنسان كله، ويحوى فى داخله الحواس جميعها من السمع والبصر والذوق والشم واللمس، لذلك ينطقه الله يوم الحساب فيشهد شهادة كاملة على كل هذه الجوارح من الألسنة والأيدى والأرجل، وما اقترف أصحابها من آثام. (ويوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون، حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون، وقالوا لجلودهم: لم شهدتم علينا قالوا: أنطقنا الله

الذى أنطق كل شيء، وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون، وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم، ولكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون. «١٩ - ٢٢: فصلت».

(يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون). «٢٤ : النور».

(اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون) «٦٥ : يس».

(ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا: إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون). «١٤ - ١٥: الحجر».

ونحن نلاحظ أن هذا المنهج فى القصص القرآنى قد عمد إلى مخاطبة الحس والتجريد وربط بينهما برباط وثيق، وأتاح الفرصة للتخييل والتجسيم، وأباح للحواس استقبال المعرفة والعلوم كيفما شاءت، حتى نصل إلى مواطن الفهم والإدراك بأكثر من طريق، وتلمس البصيرة والذهن، وتستقر فى خلجات الشعور والوجدان، استقرار النقوش في الأحجار الصلدة الصماء.

فتارة يسوق المنهج كثيرا من الأدلة والبراهين للإقناع المنطقي، وتارة يدعو الطبائع المركوزة فى النفس إلى التأمل والتفكر والتدبر، فى مظاهر الكون ومشاهد الطبيعة الجوية والبرية والبحرية، وتارة يحث العقول والألباب لأعمال طاقاتها في خلق الطير والإنسان والحيوان يقول تعالي: (أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت، وإلى

السماء كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نصبت، وإلى الأرض كيف سطحت) «١٧ - ٢٠: الغاشية» (أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض، وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم، فبأى حديث بعده يؤمنون) «١٨٥ : الأعراف». (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض، وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) «١٠١: يونس». (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) «١٦٤: البقرة» (ومن كل شيء خلقنا زوجين. لعلكم تذكرون). «٤٩: الذاريات» (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون، إنما يتذكر أولوا الألباب). «٩ : الزمر». (وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا). «٦٢ : الفرقان».

غاية المنهج إيقاظ الشعور والإحساسات فى الإنسان، وتهيئته لخلافة الأرض وخوض التجربة فيها حتى يصبح جديرا بالسيطرة عيها، ومن ثم نرى أنه ما من قصة قرآنية إلا ويجيء التعقيب بعدها متسقا مع الوسط الذى عرضت فيه، فمثلا فى قصة يوسف - عليه السلام - توافق بين البدء والختام (إذ قال يوسف لأبيه: يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين). «٤ :يوسف». ثم ختمت بتأويل رؤياه بعد عرض الأحداث (ورفع

أبويه على العرش وخروا له سجدا، وقال: يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل، قد جعلها ربى حقا). «١٠٠ : يوسف».

وجاء التعقيب على مرحلتين:

أولاهما فى أول بالسورة وقبيل البدء بالقصة (نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن، وإن كنت من قبله لمن الغافلين). «٣ : يوسف».

وثانيهما فى آخر السورة، وعقب أحداث القصة، لدعوة أولى الأبصار، وذوى العقول والألباب والفطنة والذكاء - لدعوتهم إلى التدبر والتفكر فيما دار بين الرسل وأقوامهم، وكيف انجلى الموقف عن إظهار دين الله وإعلاء كلمته، وانتصار رسله، ومن اتبعهم من المؤمنين، على حين وقوع البلاء والخزى والخسران على الكافرين.

(لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب، ما كان حديثا يفتري، ولكن تصديق الذى بين يديه، وتفصيل كل شيء، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون). «١١١ : يوسف».

وفى اللوحة التالية دعوة إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى الصبر والتفكر والتدبر فى ابتلاء داوود - عليه السلام - حيث لم يكن على المستوى المطلوب منه فى مواجهة هذا الابتلاء - وإن كان ذلك لا ينقص من قدر هذا النبى الكريم، ويزيد فى قدر النبى محمد - صلى الله عليه وسلم - فما هو هذا الابتلاء؟؟

يقول المفسرون: إن خصمين دخلا على داوود عليه السلام - فى مجلسه، وتسوّرا عليه السور، ففزع منهما، وتوقع الشر من

دخولهما على تلك الصورة، إذ اقتحما عليه مجلسه دون استئذان، وسرعان ما يكشف الخصمان عن شخصيتهما، ويقولان له: (لا تخف) ويطلبان منه أن يعدل بينهما فى حكم قضيتهما، ويحذرانه ألا يشتط فى الجور، إن كان لا يملك العدل بينهما، وتطرق إلى ذهن النبى داوود - عليه السلام - أن الأمر فيما يبدو هو محاكمة له أكثر منه احتكاما إليه.

وموجز القضية جمعتها الآية الكريمة فى كلمات: (إن هذا أخى له تسع وتسعون نعجة، ولى نعجة واحدة، فقال: أكفلنيها وعزنى فى الخطاب) . «٣٣ : ص».

فالظلم واضح فى هذه القضية، ولهذا بادر داوود عليه السلام - بإصدار الحكم فيها، دون أن يلتفت إليه الظالم. (قال):

- (لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه، وإن كثيرا من الخلطاء ليبغى بعضهم على بعض، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم). (وظن داوود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب). «٢٤ : ص» وذهب الخصمان، دون أن يفصل بينهما فيما اختصما فيه.

وهنا أدرك داوود أن هذين الخصمين، إنما هما ابتلاء من الله سبحانه وتعالي، ليكشفا له عن أمر كان منه، فاللوحة صورة مجسمة ممثلة فى خصمين آخرين هما: داوود وخصمه) ووجه الشبه بين هذين الخصمين والخصمين الآخريين داود وخصمه ظاهر وواضح، فتجسد فى الظلم والجور الذى وقع من أحد الخصمين -

داوود على أحد رعيته (فاستغفر ربه وخر راكعاً وأناب) والخلاصة أن داود - عليه السلام - قد تعرض لهذا الابتلاء ، وذلك الصراع العنيف بين القوى والضعيف، وبين الحاكم والمحكوم، وبين صاحب سلطان يعتز بسلطانه، وبين من لا حول له ولا قوة إلى جياده وقد يكون مزرعة بين مزارع داود - عليه السلام - يمثل السلطان والنبوة، وقد مالت نفسه ورغبت فى شيء مما يمتلكه أحد رعاياه ولم يستطع الآخر أن يقول: لا توقير وهيبة أو خوفا وإشفاقا (وعزنى فى الخطاب).

«أما الشيء الذى أخذه داوود - عليه السلام - من هذا الإنسان فذهب فى تأويله المفسرون مذاهب كثيرة، فقد يكون فرسا ضمه داود، وليس من المحتم أن يكون امرأة، كما تذهب الإسرائيليات، وإن كان لسان العرب يطلق على المرأة «نعجة». (١)

ومن ثم جاءت الخاتمة مؤتلفة منسجمة مع أول القصة، وجاء التعقيب آية فى الإعجاز، محققا الغرض من القصة، مجسما تحقيق العدل فى الحكم بين الناس، منفرا عن الظلم والجور، وهذه سنة الله فى خلقه، وحكمه بين عباده. فكما لايظلمهم ربهم مثقال ذرة، كذلك جعل الظلم محرما بينهم، ففى الحديث القدسي: «يا عبادى حرمت الظلم على نفسي، وقد حرمته عليكم، فلا تظالموا».

إنه لتعقيب واقعى يضرب المثال قبل القاعدة والتجريد، وتعقيب دينى تشريعي، وبالتزام العدل وتحقيقه، وتعقيب فتى بالإنسان

---

(١) المرجع السابق : ص ١٠٧٤ .

والتساوق بين بداية القصة وختامها. (يا داوود إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق، ولا تتبع الهوي، فيضلك عن سبيل الله، إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب). «٢٦ :ص».

واللوحة التالية تصور الذين عطلوا حواسهم عن الاستقبال، فأصبحت أجهزة خربة لاتسمع ولا تبصر ولا تعقل، إذا استغلق فهمهم، فلم ينظروا ولم يتدبروا، بل جعلوا بينهم وبين الهداية حجابا، وأقاموا سدودا حالت بينهم وبين العلم ونوره، فلم تسمح لشعاع من شعاعات الحق أن يخترق هذه السدود وتلك الحواجز، فهم أشبه بالأنعام، بل هم أضل، أولئك الذين قال الله تعالى فيهم: (ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس، لهم قلوب لا يفقهون بها، ولهم أعين لا يبصرون بها، ولهم آذان لايسمعون بها).

هؤلاء أشبه بالناس، لأنهم فى صورة الناس ولكنهم ليسوا أناسا، وإنما استعملوا حواسهم وأدوات السمع والبصر والإدراك فيما يضرهم ويفسد وجودهم، فساقهم ضلالهم؟ (إن هم إلا كالأنعام، بل هم أضل سبيلا). «٤٤ : الفرقان».

فها هو ذا إبراهيم - عليه السلام - يجادل بالحق «النمرود» ملك كنعان.

- كما يقول المفسرون - والتقى معه فى صدام فكرى عقلاني، مثل فيه الحق ومنطقة، ومثل النمرود، سفاهة الباطل وصفاقته، قال إبراهيم:

- (ربى الذى يحيى ويميت).

فرد المغرور الكافر بنعم الله عليه، حيث مكّن له فى الأرض وآتاه من فضله (قال):

- (أنا أحيى وأميت).

والدليل على ذلك فى إمكانى الآن أن اقتلك أو أبقيك، وتحاشى إبراهيم - عليه السلام - أن يدخل معه فى سفسطة، بل جاءه بالحجة الدامغة التى آخر سنه وأفحمته (قال إبراهيم):

- (فإن الله يأتى بالشمس من المشرق، فأت بها من المغرب).

فسُقط فى يده، وأخذ بتلابيبه وخرس لسانه، وشل تكفيره، وألجم مبللا بالخزى والخذلان (فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين). «٢٥٨ : البقرة».

وهكذا تأتى الخاتمة، خاتمة هذا الظالم الطاغية الذى قال قولة فرعون (فقال أنا ربكم الأعلي). «٢٤: النازعات». وأُخذ الطاغيتان أخذ عزيز مقتدر، فغرق فرعون وهلك، وخوّل الله للنمرود حشرة اخترقت أذنه واستقرت داخل مخه، فلم يهدأ له بال، ولم يقر له قرار حتى يضرب من خاصته بالنعال على رأسه تسكينا لهذه الحشرة، وحتى سكت النمرود سكوته الأبدى وهلك مع الهالكين. (فأخذه الله نكال الآخرة والأولي). «٢٥ : النازعات».

هذه اللوحة جسمت هذا النمرود وعرته، وكشفت لنا طبيعته، فبدأ قلبه مختوما، أصم أخرس مغشى البصر، نكد الطبيعة، مظلم

الفؤاد، ضال الفعال (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم). «٧ : البقرة».

ولقد تضاربت الأقوال، وكثرت آراء المفسرين فى قضية الذين ختم الله على قلوبهم وفحواها: ما لهؤلاء الذين ختم على قلوبهم وعلى سمعهم وأبصارهم ؟؟؟؟

وخلاصة رأى العلماء فيها أن الأمر كله لله، فالخلق خلقه والناس عبيده، يقضى فيهم بحكمه كيف اقتضت إرادته - قال تعالى (هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن، والله بما تعملون بصير). «٢ : التغابن».

وعن مسلم بن يسار الجهنى أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - سئل عن معنى قوله تعالي: (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا: بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين). «١٧٢ : الأعراف». فقال عمر: «سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سئل عنها فقال: (إن الله عز وجل لما خلق آدم مسح على ظهره بيمينه، فاستخرج منه ذريته فقال: خلقت هؤلاء للجنة، وبعمل أهل الجنة يعملون، ثم مسح على ظهره بشماله، فاستخرج منه ذريته فقال: هؤلاء للنار وبعمل أهل النار يعملون، فقام رجل فقال: يارسول الله ففيم العمل؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - (إن الله عز وجل، إذا خلق العبد للجنة، استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل أهل الجنة، وإذا خلق العبد للنار،

استعمله بعمل أهل النار حتى يموت وهو على عمل أهل النار، فيدخله به النار(١) ومن رحمة الله ولطفه بعباده أنه لم ينكشف الأمر لأى من الفريقين، فليس هناك من أحد من أهل الجنة يعلم أنه داخلها، وليس أحد من أهل النار يعرف أنه بصلاها، بل الجميع مدعوون إلى العمل ابتغاء مرضات الله، وكل مهيأ لما خلق له.

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ، والتفسير القرآنى : عبد الكريم الخطيب فى تفسيرهما الآية رقم ٢ من سورة (التغابن) .

الواقعية والقصص القرآنى

القصص القرآنى
حقائق وأحداث واقعية

كل ما ورد فى القصص القرآنى - من أشخاص وأحداث ومجتمعات وأقوام وأمصار وقرى - حقائق قد وقعت فعلا.. ما فى ذلك شك..

وإن المتقولين بأن القصص القرآنى لم يحمل فى أطوائه الأحداث التى جاء بها - على مدى الزمان والمكان، وأنه قد بعد عن الواقع - هؤلاء المتقولون وأمثالهم هم أعداء الله.. وما من مسلم فى قلبه ذرة من إيمان يتقول على الله، ذلك لأن الحياة كلها بأزمنتها وأمكنتها وأشخاصها وأحداثها حاضرة بين يدى الله الحكيم العليم، بين يدى من لا تخفى عليه خافية فى الأرض، ولا فى السماء (فلله الحمد رب السموات ورب الأرض رب العالمين، وله الكبرياء فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم). «٣٦ - ٣٧ : الجاثية».

وإذا كنا نحن البشر نلجأ إلى الخيال والوهم لننسج منهما قصصا حينما يعجزنا الواقع، أو لم يسعفنا بما نتصوره ونتملاه، فإن قدرة

الخالق جل وعلا - ايعجزها شيء، تريد فيقع ما تريد كما أرداته دون قصور أو مهل، إنها إرادة لا يخالطها وهم، ولا يطوف بها خيال، ولا تعللها الأماني. تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

فإذا كان المستشرقون المتعصبون ومن خالطهم من أنصاف المثقفين السوفسطائيين يفترن هذه الفرية فقد جاؤا ظلما وزورا.. إنهم يتهمون قدرة الله، وينسبون إليه ما ينسب الى البشر عن عجز وقصور ولجوء إلى الخيال حينما يعجزهم الواقع وتعمى عليهم الحقائق.

ولقد قلنا فى فصل سابق: إن هذا القرآن ليس كتاب تاريخ أو عرضا لكل أحداث الحياة برمتها، وإنما يعرض من الأمور ومن المواقف ما يحدث فى النفوس أثرا، ويقيم فى الصدور وازعا، يدور مع العبرة أينما تدور، ويفتح للعقل منافذ التفكير والتدبر، حتى يضع الميسم على بواطن الأمور ويتعرف عليها ويتعظ بها.

ولاشك أن الأحداث التى يقتطعها القصص القرآنى من شريط الحياة هى الحقيقة الواقعة والصدق الخالص (وبالحق أنزلناه وبالحق نزل). «١٠٥ : الإسراء». (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق). «١٦ : الحديد».

(ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق). «١٧٦ : البقرة». (نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه). «٣ : آل عمران». (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون). «٩ : الحجر». (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد). «٤٢ : فصلت».

وإذا كان القصص القرآنى قد نقّى هذه الأحداث وغربلها، وحسن عرضها، وخلصها من الزوائد والحواشى التى لا تفيد شيئا فى تصوير هذه الأحداث، إذا كان ذلك هو الشأن، فلا يصح أن يكون مسّوغ لأن يتهم بأنه ليس من صميم الواقع، أو أنه غيّر فى معالم الواقع، ويدل من الحقائق التى وقعت.

وإذا كانت - الآن - قد ازدهرت الترجمة، وتعلم الناس كيف ينقلون ويترجمون ما يحيك فى صدور المتكلمين بالأوروبية إلى العربية وبالفارسية إلى التركية، ومن كل أولئك إلى العربية وبالعكس، إذا كان الأمر كذلك، أفلا يكون ذلك أيسر وأقدر على من جعل الألسنة فى خلقتها مختلفة (ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم، إن فى ذلك لآيات للعالمين). «٢٢: الروم». أفلا يكون ذلك أيسر وأقدر على من خلق الخلق وهو أعلم بهم (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير). «١٤ : الملك».

فالذين يتقوّلون بأن القرآن قد تحدث بلسان عربى عن ألسنة غير عربية فهذا ادعاء باطل أيضا، إن القرآن لم يتقّول على قوم نوح حين ترجم ما نطقوا به، ولم يتقول على أقوام عاد وثمود وصالح وموسى وعيسي، إنما نطق بما نطق به هؤلاء الأقوام، إنه المضمون الحق، والمحتوى الصادق الأمين لما تكن صدورهم وتجمجم به أفئدتهم، فإذا كانت حكمته وقدرته أنطقت السموات والأرض، أليس ذلك بقادر على أن ينطبق من خلق لهم الألسنة، ينطقهم

بالعربية، ويترجم ما نطقت به دلالة حالهم، فإذا جاءت كلمات الله ناطقة بما نطقت به ألسنة الحال أو المقال، فهو الصورة الكاملة - روحا وشكلا ومضمونا ومحتوى - لما نطق به الناطقون، وأعجزهم العجز عن البيان به أو التعبير بلسان عربى مبين.

ولنعرض - الآن - بعض القصص القرآني، لندلل بها على أن القرآن حينما عرض هذه القصص، إنما استقاها من مصدرها الواقعي، بأحداثها وخلجاتها ومواقفها وتعبيراتها وحركاتها وسكناتها على مسرح حياتها الغابرة.

هل كان الذى حدث لأصحاب الكهف موتا حقيقيا أم كان سباتا ونوما طويلا ؟ كلا الأمرين يمكن أن يكون مادام ذلك متعلقا بقدرة الله، وكذلك الشأن فى ذلك الرجل الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها، فهو رجل يؤمن بالله، وكان يريد أن يستوثق لإيمانه، ويطلب له المزيد من الأدلة والشواهد، فالرجل حينما مر على هذه القرية التى اندثرت معالمها، وخمدت حياتها، وصار كل شيء فيها إلى تباب ويباب. فتساءل: هل تعود هذه المعالم التى بلاها البلي، وأكلها التراب مرة أخرى إلى الحياة؟؟ أذلك ممكن ؟؟ فعلم الله - تعالى - ما يدور بخلده، وما يتجمجم فى صدره، فأعاشه التجربة الحية، وأماته مائة عام، ثم أحياه، ووجد الرجل هاتفا من قبل الله يسأله عن الزمن الذى لبثه، فوضع فى تقديره أن ما لبثه يوما أو بعض يوم، ولم يدر بخاطره أنه لبث مائة عام، وأخبره الهاتف بالحقيقة وطلب منه أن ينظر إلى طعامه وشرابه اللذين لم يدخلهما

فساد، وإلى حماره مازال قائما إلى جواره كما تركه (أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها، قال أنّى يحى هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه.. قال : كم لبثت قال: لبثت يوما أو بعض يوم.. قال: بل لبثت مائة عام.. فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه.. وانظر إلى حمارك ولنجعلك آية للناس. وانظر إلى العظام كيف ننشزها، ثم نكسوها لحما فلما تبين له: قال : أعلم أن الله على كل شيء قدير). «٢٥٩ : البقرة».

فهاتان القصتان قد وقعتا بالفعل:

الأولي: فى قصة أصحاب الكهف والعبرة فيها موقفهم من الضلال الذى كان مطبقا على بيئتهم التى عاشوا فيها، وفى تخليص أنفسهم من هذا الضلال، وفى تضحيتهم بالأهل والمال والوطن، فى سبيل عقيدتهم، والفرار بدينهم من هذه الفتنة المهلكة، وأخيرا قدرة الله على بعث الموتي.

والثانية: جعل هذا الرجل - الذى أراد أدلة على إحياء الله الموتى - آية لكل من يشك فى قدرة الله تعالى - على البعث والنشور بعد الممات.

وهاتان التجربتان المثيرتان ليستا إنشاء أو خيالا، فأحبار اليهود يعلمون تماما حقيقتهما، وقد اختلفوا فى عدد السنوات التى مكثها أبطال القصتين.

ماذا ينتظر المستشرقون ومن سلكوا مسلكهم من الدارسين ؟؟

هل ينتظرون أن يجيء القرآن الكريم بالأشخاص والأحداث،

فيبعثها من مرقدها، ويحركها من جديد لتنطق بما نطقت به، أو لتشير بما كانت قد أشارت إليه؟؟

إن القصص القرآنى لم يخرج عن المألوف، أو سنة الحياة التى يحياها الناس فى رواية أخبار الأمم السابقة، ويتناقلونها - على اختلافهم - فالمعيار الأول والأخير هو الصدق فى الرواية والأمانة فى النقل، والدقة فى التصوير والتعبير، ولن يكون ذلك على أتم تمامه، وأكمل كماله إلا فى القرآن (ومن أصدق من الله قيلا). «١٢٢ : النساء».

(ومن أصدق من الله حديثا). «٨٧: النساء».

وتجربة سيدنا إبراهيم - عليه السلام - صورة أخرى وتمثل المؤمن الذى يطلب المزيد من الإيمان، ليقتل فى نفسه كل وسواس، وليخمد فى صدره كل همسة من همسات الشيطان (وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته، فينسخ الله ما يلقى الشيطان، ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم). «٥٢ : الحج». فالحكم فى الآية صريح لا انفكاك منه، يقع على رسل الله وأنبيائه جميعا، فالشيطان راصد لكل نبى وكل رسول، وهذا الموقف - موقف أبى الأنبياء جميعا - لا ينتقص من إيمانه، إذا كانت غايته طلب المزيد من النور، والجديد من العلم، وقضية الموت والبعث هى الثغرة التى تنفذ منها رميات الشيطان إلى قلوب المؤمنين.

وجد إبراهيم - عليه السلام - أن ألطاف الله تحف به، ونفحاته

ورحماته لا تنقطع عنه، فهفت نفسه إلى أن يسأل ربه - بدافع غريزة حب الاستطلاع - السؤال الذى يتضمن معنى الآيات الحوارية التالية:

(وإذ قال إبراهيم):

- رب أرنى كيف تحيى الموت؟؟

ومن ثم جاء الجواب متخذا اتجاها آخر غير متجه السؤال (قال) أو لم تؤمن : إثارة لمشاعر إبراهيم واستحضارا للإيمان الذى يعقد عليه قلبه، ولهذا كان جواب إبراهيم (قال):

- بلى - ولكن ليطمئن قلبي.

فكشف الله له عن تجربة يجريها إبراهيم بنفسه، ويصنعها بيده، ويشهد على آثارها بعينه (قال):

- فخذ أربعة من الطير فصُرهن إليك، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا، ثم ادعهن يأتينك سعيا، واعلم أن الله عزيز حكيم). «٢٦٠ : البقرة».

ويقوم إبراهيم - عليه السلام - بالتجربة، فيأخذ من الطيور أربعة مختلفة ويضمها إليه، ويتعرف عليها حتى تألفه ويألفها، ثم يقطعهن أجزاء وأشلاء، ويجعل كل شلو على رأس جبل، ثم يدعوها إليه بأسمائها التى أطلقتها عليها، كما يدعو أهله ومعارفه بأسمائهم، وتتم التجربة وتجيء الطيور الأربعة بسرعة، فليس فى هذا خيال أو افتعال، وإنما هى أمثلة لقدرة الله وحكمته عن طريق التجربة الحسية، والإعاشة الحية، التى اهتاجت لها المشاعر، وخفقت لها الأفئدة.

والحقيقة التالية التى لا يتطرق إليها الشك تتجلى فى هذه الدعوة إلى البر والإحسان، وكما يربوا لإيمان وينمو فى طريق الهداية والعلم يربو أيضا غرس الحق والخير، فالذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله، إنما يجنون ثمرة هذا الغرس الذى غرسوه فى سبيل الله أضعافا مضاعفة، كما يزرع الزراع حبة فى أرض طيبة فتنبت سبع سنابل، تحمل كل سنبلة مائة حبة، هكذا الحبة تعطى سبعمائة حبة، والحسنة تجازى بسبعمائة حسنة يقول الله تعالي: (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله، كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم). «٢٦١ : البقرة».

فهل هذا تمثيل أو تخيل؟ إنه حقيقة واقعة، فإذا تطرق الشك إلى ضعاف النفوس، وأنى للحبة أن تنبت سبع سنابل؟ وأنى للسنبلة أن تؤتى مائة حبة ؟ نقول لهم: ما أكثر غرائب الطبيعة !! وما أروع عجائبها؟؟ فكم من امرأة ولدت خمسا أو ستا فى بطن واحدة ؟؟ كذلك الله يخلق ما يشاء، إن الذى يخبرنا هو الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. وأخيرا أيها الشاكون.. اسألوا علماء النبات: كم من اختراع فى عالم النبات بحيث تلد الحبة أكثر من سبعمائة حبة !!

فإذا كانت طريقة القرآن الكريم فى منهجه وعرضه - تجسيم هذه الأمثال وتصويرها وتشخيصها، فليس معنى ذلك أنها لم تقع أو لم

تحدث، إن طريقة العرض وأدوات التصوير والمحاكاة شيء، ووقع الأحداث وحقائقها وكنهها وماهيتها شيء آخر، وموقفنا نحن الذين لم نشاهدها، هو الإيمان بوقوعها، والتصديق بحدوثها، لأن الإيمان بالغيب هو البرزخ بين عالم الحيوان الذى لا يدرك إلا ما تدركه حواسه، وبين عالم الإنسان الذى يدرك أن الوجود أكبر وأشمل من ذلك الحيز الصغير المحدود الذى يدرك بالحواس، والسبيل إلى تخطيه هو البديهة والبصيرة والتفتح، وإعمال الفكر والتدبر والنظر الثاقب (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك، وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كانت لديهم إذ يختصمون). «٤٤ : آل عمران».

(وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلى موسى الأمر وما كنت من الشاهدين، ولكنا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاويا فى أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ولكنَّا كنا مرسلين، وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر قوما ما أتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون). «٤٤ - ٤٦ : القصص».

(تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك، ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا، فاصبر إن العاقبة للمتقين). «٤٩ : هود».

(فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك، لقد جاءك الحق من ربك، فلا تكونن من الممترين). «٩٤: يونس».

(الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وإن فريقا

منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون، الحق من ربك فلا تكونن من الممترين). «١٤٦ - ١٤٧ : البقرة».

(الحق من ربك فلا تكن من الممترين). «٦٠ : آل عمران».

(أفغير الله أبتغى حكما، وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا، والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق فلا تكونن من الممترين). «١١٤ : الأنعام».

ويقول المعترضون: إن هذه المحاورة التى يصورها القصص القرآنى فى آخر سورة المائدة بين المولى - تعالى - وبين عيسى - عليه السلام - لا تفهم على ظاهرها ولا تفسر على أنها وقعت فعلا، وأنها لا يمكن أن تكون إلا للتصوير الأدبى الذى يقصد منه إلى توبيخ النصارى المعاصرين لمحمد - صلى الله عليه وسلم - ويتساءلون: كيف تفسير الآية (وإذ قال الله يا عيسى بن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله) «١١٦ : المائدة». فكيف يصح ذلك وعيسى لم يقل ذلك للناس؟ وكيف يصح أن يقول (وإذ قال الله) وذلك يخبر به عن الماضي، ولم يتقدم ذلك منه - تعالى - فى الدنيا؟

ونسى هؤلاء المعارضون أو جهلوا أنه يجوز من الحكيم العليم أنه يخاطب متهما بفعل ليكون ردعا وتوبيخا لمن فعل، والله - تعالى - عالم بالأمور ولا يصح الاستفهام عليه. ويرى علماء التفسير أن هناك - فى هذه الآيات - نوعين من الأساليب:

أولهما: إخبار الله - تعالى - رسله يوم القيامة بما حدث من

النصارى والحوار بين مع عيسى بن مريم، وقد حدث ذلك فعلا فى الدنيا.

وثانيهما: أسئلة تقريرية، ليقيموا الحجة على ضلال ما عمل أتباعه من بعده، فيجيبه عيسى - عليه السلام - مذكرا ذلك جاحدا له مقررا أنه فى حياته، إنما دعا الله وحده وعبادته دون سواه، وأنه كان يراقبهم ويزودهم بالنصائح حتى وفاته، والله - تعالى - كان الرقيب والشهيد على ذلك (ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به أن اعبدوا الله ربى وربكم، وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم، فلما توفيتنى كنت أنت الرقيب عليهم، وأنت على كل شيء شهيد). «١١٧ : المائدة».

فكلا الأسلوبين: الخبرى والإنشائى الاستفهامي، فيه تقرير بما وقع فى الدنيا، والسؤال موجه إلى عيسى - عليه السلام - لتقرير ما حدث من قومه بعد وفاته، ولم يصدر عن عيسي، ولكنه حدث فعلا من قومه، فلزمهم حجة الله وحق عليهم العذاب.[1]

إذن لا نقول إن ذلك مجاف للواقع، لأن التعبير بالماضى فى جنب الله متحقق الوقوع متى حضر وقته.

ويرى المعارضون أن وصف اليهود لعيسى - عليه السلام - بأنه رسول الله كما حى القرآن (وقولهم إنا قتلنا المسيح بن مريم رسول الله). «١٥٧ : النساء».

---

(١) أنظر : تنزيه القرآن عن المطاعن ص ١١٥ : للرازى .

يرون أنه لا يمكن أن يفهم على أنه صدر حقا من اليهود، فهم لم ينطقوا بهذا الوصف، وإنما هو الذى أنطقهم به، ذلك لأن وصفه بالرسالة ليس إلا التسليم بأنه رسول الله، وهم لم يسلموا بهذا، ولو سلموا لأصبحوا مسيحيين، ولما كان بينهم وبينه عداء ولما كان قتل وصلب..

وليعلم هؤلاء المرجفون أن ما قاله اليهود عن عيسى - عليه السلام - بأنه رسول الله، إنما قالوه على وجه الاستهزاء والسخرية والاستخفاف به، فهم لم يعترفوا بإنه المسيح، ولم يعترفوا بإنه رسول الله، كقول فرعون عن موسي: (إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون). «٢٧: الشعراء».

ويرى المرجفون أن مسألة خلق حواء من ضلع من أضلاعه آدم لم يرد به نص قرآني، إنهم يفهمون خطأ تفسير قوله تعالي: (يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة، وخلق منها زوجها، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام، إن الله كان عليكم رقيبا). «الآية ١: النساء».

فمعنى قوله تعالى : (وخلق منها زوجها) أى وخلق من هذه النفس ومن مادتها وطبيعتها، زوجا لهذه النفس مقابلا لها ومكملا لوجودها، فالمرجفون فهموا أن حواء خلقت من ضلع آدم - وهذا الزعم من واردات الأساطير، لأن الضمير فى (منها) الذى يشير إلى النفس الواحدة لا يقصدها باعتبارها كائنا بشريا هو «آدم» وإنما يشير إليها باعتبارها مادة مهيأة لخلق البشر، فمن هذه المادة كان

خلق آدم، ومن هذه المادة أيضا كان خلق زوجه، كما يشير إلى ذلك قوله تعالي: (وخلقناكم أزواجا). «٨: النبأ». بدليل أن التدبير الذى قدره الله لخلق الكائنات الحية كلها من حيوان ونبات (ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون). «٤٩: الذاريات». (والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج). «٧:ق».

وفى قوله تعالي: (فجعل منه الزوجين الذكر والأنثي).«٣٩: القيامة». إشارة صريحة إلى أن الإنسان يحمل فى كيانه طبيعة الذكر والأنثي: أى المادة المخلّق منها الذكر والأنثي، ففى الذكر ذكر وأنثي، وفى الأنثى وذكر، وذلك ما يقرره العلم الحديث. (١)

ونفس المعنى فى الآية الكريمة (هو الذى خلقكم من نفس واحدة، وجعل منها زوجها ليسكن إليها، فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به). «١٨٩: الأعراف».

ويرى المرجفون أن بعض الأحداث التى وردت فى القصص الإسلامى أسندت لشخوص بأعينهم فى موطن، ثم أسندت ذاتها لغير هؤلاء الأشخاص فى موطن آخر، ومن ذلك قوله تعالي: (وامرأته قائمة فضحكت، فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب، قالت: يا ويلتى أألد وأنا عجوز، وهذا بعلى شيخا، إن هذا لشيء عجيب). «٧٢ : هود». وقال تعالي: (قالوا: لا توجل، إنا نبشرك بغلام عليم، قال: أبشرتمونى على أن مسنى الكبر، فبم

---

(١) انظر التفسير القرآنى ص ٦٨٢ وما بعدها عبد الكريم الخطيب .

تبشرون قالوا: بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين، قال: ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون). «٥٢ - ٥٦ : الحجر».

وبالرجوع إلى أمهات التفسير ألفيناهم أجمعوا على أن البشرى لكليهما في سورة «هود» لأن إبراهيم - عليه السلام - بعلها، ولأنها فزعت منهم حين قدمت الطعام، وفي سورة الحجر كانت البشرى لإبراهيم - عليه السلام - حين فزع منهم في أول لقاء - قيل زوجة سارة - ولم يسم الغلام في سورة الحجر، ولا النافلة - يعقوب الذي يخلفه - اكتفاء بما سلف في سورة هود، وتوجيه البشارة إلى سارة مع أن الأصل في ذلك إبراهيم - عليه السلام - فقد وجهت إليه - (فبشرناه بغلام حليم). «١٠١: الصافات». (قالوا لاتخف، وبشروه بغلام عليم). «٢٨ : الذاريات».

قالوا للإيذان بأن ما بشر به يكون منهما، ولكونها عقيم حريصة على الولد. وقيل: إن الملائكة بشروهما «بغلام عليم» هو «إسحاق» أما قوله تعالى (فبشرناه بغلام حليم) هو «إسماعيل» - عليه السلام - وهذا مما استدل به على أن الذبيح هو إسماعيل، وإن إسحاق لا يجوز أن يؤمر بذبحه بعد أن وقعت البشارة بوجوده ووجود ولده يعقوب من بعده.

ويرى المعارضون والمرجفون أن حرف «لا» في قوله تعالي: (ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك) ؟ فكيف يكون الانكار على إبليس بترك السجود بهذا الاستفهام عن السبب الذي منعه من عدم السجود، وهو على خلاف المواد من الاستفهام الذي يطلب إليه فيه

أن يجيب عن سبب المنع من السجود، لا عن سبب المنع من عدم السجود.

يقول عبدالكريم الخطيب» فى «التفسير القرآنى» ص ٣٧٢ وما بعدها «القول بزيادة اللام لا معقول له لا - عند القالين به - أنه يسوى النظم القرآنى ويمنع اضطراب المعنى أو فساده، ولا يشفع لهذا القول ما جاءوا به من شواهد من الشعر العربى بزيادة حرف النفى «لا» فالقرآن حجة على الشعر وليس الشعر حجة على القرآن، ثم إن القرآن ليس شعرا حتى تتاح فيه الضرورات التى يتاح فى الشعر، وإن القرآن ليس من قول بشر حتى تحكمه الضرورة، وتلتمس لقائله المعاذير ولكنه كلام رب العالمين (لا يأتيه الباطل من بين يده ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد) «٤٢ فصلت»

وإذن فحرف النفى «لا» حرف أصيل ، هو من صميم النظم القرآنى فى الآية الكريمة، وله مكانة فى الاعجاز الذى تحمله الآية، ولو حذف لحذف معه بعض ما فى الاية من إعجاز، والذين يقولون بزيادته يهربون من مواجهة كلمات الله وآياته.

لأن «لا» إذا قيل بزيادتها كان المعنى حسب منطوق النظم بعد الحذف هكذا «ما منعك أن تسجد» وهذا يعنى أن مع إبليس حجة على منعه من السجود !! وقد أجاب إبليس على هذا وقدم الحجة التى معه فقال : (أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين) «٧٦: ص» ولكن أية حجة لمخلوق أمام الخالق؟؟

قد أمره الله - تعالى - بالسجود، وكان عليه أن يمتثل لهذا الأمر

وأن يسجد كما سجد الملائكة كلهم أجمعون، أما التردد فى الامتثال لهذا الأمر، أو النكوص عنه، فهو عصيان صريح لله، وتحدى وقاح لأمره.

وإذا بقيت «لا» بمكانها من النظم - وهى باقية أبد الدهو - مؤدية وظيفتها (النفى)، فإن المعنى حينئذ يكون هكذا حسب منطوق النظم: ما منعك من ألا تسجد إذ أمرتك ؟ أى ما حملك على ألا تسجد وبهذا يكون النظر إلى كلمة المنع، لا إلى الحرف «لا» وهل هو منع قائم على حوافز وحوائل تمنع من امتثال الأمر، وتحول بين المأمور وبين تيان ما أمر به ؟ أم هو منع قائم على أوهام وضلالات، ومستند على محامل وعلل من الوهم والضلال؟؟

والجواب أنه ليس هناك منع على الحقيقة وإنما هى علل فاسدة، ومحامل باطلة، اتخذ منها هذا الشقى ذريعة يتذرع بها عصيان ربه، وعذرا يتعذر به إليه.

ولهذا كان النفى للمنع مطلوب هنا، حيث لا سبب للمنع على الحقيقة، ثم فى مساءلة الله - سبحانه وتعالى - لإبليس فى غير هذا الموضع جاء قوله تعالى: (قال: ياإبليس مالك ألا تكون مع الساجدين) «٣٢ : الحجر» فقوله تعالى : (مالك) هو بمعنى «ما منعك» حيث لا منع، وقد جاء فى موقف آخر قوله تعالى : (قال : يابليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدى استكبرت أم كنت من العالين؟) «٧٥ : ص» جاء من من غير حرف النفى «لا» ولكن جاء بعده ما يكشف عن تعلات إبليس وأوهامه المندسة فى صدره، فقال

تعالى : (أستكبرت أم كنت من العالين)؟ فهو الاستكبار - والتعالى ، وتلك موانع اصطنعها إبليس وأقامها من ضلاله وجهله، وقد تكررت إجابته: (أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين). إذ كان هذا الاختلاف فيما بين النار والطين وهو الذى أضل إبليس وأغواه، حين قدر أن النار خير من الطين، وأن الأعلى لا يسجد للأدنى [1]

وهكذا أسقط فى يده، وأخذ بمخانقة فانهار وهوى، ثم تخبط فى هذا الهذيان المحموم ، وقد عرف الاتجاه له فإبلس وكان من المهالكين،

ومن آراء المرجفين والمعارضين أنهم لا يستطيعون أن يتصوروا مساعدة الملائكة للمسلمين فى غزوتى بدر وأحد اللهم إلا أن يكون حديث القصص القرآنى عنهم حديث من يأخذ الناس بعقائدهم ، وتقوية للروح المعنوية ، وتحقيقا للأمل القوى فى الانتصار السريع، وحجتهم فى ذلك أن الملك الواحد يكفى لإهلاك أهل الأرض جميعا كما فعل جبريل - عليه السلام - بمدائن قوم لوط، فإذا هو حضر يوم بدر فأى حاجة إلى مقاتلة المسلمين المفار؟ وبتقدير حضوره، أى فائدة فى إرسال سائر الملائكة؟ وأيضا فإن أكابر الكفار كانوا مشهورين، وقاتل كل منهم من الصحابة معلوم، وأيضا لو قاتلوا، فإما أن يكونوا بحيث يراهم الناس أو لا؟

(١) نفس المصدر السابق ص ٣٧٢ وما بعدها .

وعلى الاول يكون الشاهد عن عسكر الرسول - صلى الله عليه وسلم - ثلاث الاف وكثر ، ولم يقل أحد بذلك، ولانه خلاف قوله تعالى : (ويقللكم فى أعينهم) «٤٤ : الانفال)

ولو كانوا فى غير صورة الناس لزم وقوع الرعب الشديد فى قلوب الخلق ولم ينقل ذلك ألبته.

وعلى الثانيك كان يلزم حز الرءوس وتمزق البطون، وإسقاط الكفار من غير مشاهدة فاعل، ومثل هذا يكون من أعظم المعجزات، فكان يجب أن يتواتر ويشتهر بين المسلمين والكفار - والموافقين والمخالفين.

وأيضا : أنهم لو كانوا جسما كثيفة وجب أن يراهم الكل، وإن كانوا أجساما لطيفة، فكيف ثبتوا على الخيول؟؟

والجواب - بإجماع آراء المفسرين - أن المسلمين استغاثوا ربهم فى موقعة بدر - حيث كانوا قلة وكان المشركون كثرة، حتى ان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قد اشتد فى الاستغاثة والمناشدة، روى الإمام محمد أحمد - بإسناده - عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - قال : لما كان يوم بدر نظر النبى - صلى الله عليه وسلم - إلى أصحابه وهم ثلاثمائة ونيف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة ، فاستقبل النبى - صلى الله عليه وسلم - القبلة، وعليه رداؤه وإزاره ثم قال: « اللهم أنجزنى ما وعدتنى.. اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد فى الأرض أبدا، قال: فمازال يستغيث ربه ويدعوه حتى سقط

رداؤه من منكبيه، فأتاه أبوبكر فأخذ رداءه ، ثم التزمه من ورائه ثم قال: يانبى الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك ، فأنزل الله عز وجل (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين) «٩: الأنفال» أى يردف بعضهم بعضا، ويجىء بعضهم إثر بعض (وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم) «١٠ الانفال» فالضمير فى (جعله) يعود إلى هذا المدد السماوى، فلا يهولنكون العدو وكثرة عدده ، بعد ان علمتم أن الله معكم، وأن إشارات النصر وبشرياته قد جاءت إليكم تحملها ملائكة الرحمن التى بعثها الله لتقاتل معكم.

وفى قوله تعالى (وما جعله الله إلا بشرى لكم) ما يقطع بأن هذا المدد الملائكى لم يكن إلا قوى من قوى الحق، تظاهر الذين آمنوا وتثبت أقدامهم، وتربط على قلوبهم ، وبهذا يصبح الواحد من المؤمنين يرجح عشرة من المشركين كما يقول الله تعالى: (إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم مائة يغلبوا الفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون) «٦٥ الانفال»

فوجود الملائكة بين المؤمنين يشد أزرهم ويريهم أنهم أكثر من المشركين عددا وأقوة وعتادا، يقول جل شأنه: «وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينهم قليلا، ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا) «٤٤ : الانفال». (١)

(١) انظر تفاسير : القرطبى وابن كثير وظلال القرآن والمنار والرازى والتفسير القرآنى للقرآن

والدخول فى تفصيلات المفسرين عن صور الملائكة وطريقة مشاركتهم فى المعركة وملابسهم وغطاءات رءوسهم والسيوف التى يمسكونها والخيل التى يركبونها ليس مجديا بل نقف عند النص القرآنى (إذ يوحى ربك الى الملائكة أنى معكم، فثبتوا الذين آمنوا، سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق، واضربوا منهم كل بنان) «١٢ : الانفال».

قال البخارى: حدثنا إسحاق بن ابراهيم ، حدثنا جرير، عن يحيى بن سعيد ، عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزرقى، عن أبيه ٠ وكان أبوه من أهل بدر ـ قال : جاء جبريل الى النبى – صلى الله عليه وسلم – فقال ما تعدون أهل بدر فيكم ؟ قال : «من أفضل المسلمين» – أو كلمة نحوها قالك «وكذلك من شهد بدرا من الملائكة» انفرد بإخراجه البخارى.

وأما عصمة آدم – عليه السلام – التى أثارها المبطلون والمرجفون فتوصفها الآيات القصصية التالية : (ونادا هما ربهما : ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما : ان الشيطان لكما عدو مبين قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفرلنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) «٢٢ ـ ٢٣ الاعراف».

فهذا التضرع والتذلل والخضوع والاستكانة والافتقار الى رحمته وتعالى – والاعتراف بالخطأ، والتوبة عنه، يجب ما كان من معصية أو تفريط أو نسيان ، إذ علمه الله سبحانه وتعالى كيف يتوب وكيف يرجع اليه (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه، إنه هو

التواب الرحيم) «٢٧ البقرة» وهذا السر العجيب ما سرى فى أحد من ذرية آدم إلا كانت عاقبته الى خير فى دنياه وآخراه (ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى) «١٢٢ : طه».

ثم إن آدم مخلوق من البداية ليكون خليفة الله فى الأرض، فذلك الامتحان والابتلاء لصقل ملكاته وتزويده بالخبرة، فلابد من أن يخوض التجربة ، لابد وأن يزود بالسلاح الذى يقتحم به المعمعة، لابد من ايقاظ مواهبه والاسرار المركوزة فيه، حتى يتبين الحق من الباطل والنور من الظلمات، السلام من الفكر والاحاد من العقيدة ، والخطيئة من التوبة، وأخيرا ليعرف صديقه من عدوه (ولقد عهدنا الى آدم من قبل فنسى ، ولم نجد له عزما) «١١٥ : طه» هذا هو آدم وتلك ذريته من بعده، وهكذا شأن الناس جميعا يتحدون كل سلطان بقيد نوازعهم ، ويتسلط على إرادتهم ، ولو كان فى ذلك خيرهم وإسعادهم (خلق الانسان من عجل سأوريكم آياتى فلا تستعجلون) «٣٧ : الانبياء» (ويدعو الانسان بالشر دعاءه بالخير وكان الانسان عجولا) «١١ : الاسراء» (يريد الله أن يخفف عنكم ، وخلق الانسان ضعيفا) س٢٨ : النساء».

يقول الفليسوف «محمد إقبال» «فالمعصية الاولى للانسان كانت أول فعل له تتمثل فيه حرية الاختيار، ولهذا تاب الله على ادم كما جاء فى القرآن وغفر له ، وعمل الخير لا يمكن ان يكون قسرا ، بل هو خضوع عن طواعيه للمثل الاخلاقى الاعلى ، خضوعا ينشأ من تعاون النظرات الحرة المختارة، عن رغبة ورضى ، والكائن الذى

قدرت حركاته كلها ، كما قدرت حركات الالة، لايقدم على فعل الخير !! وعلى هذا فان الحرية شرط فى عمل الخير ، ولكن السماح بظهور ذات متناهية لها القدرة على أن تختار ما تفعل ، بعد تقدير القيم النسبية للافعال الممكنة له – هو فى الحق مغامرة كبرى ، لان حرية اختيار الخير تتضمن كذلك أختيار عكسه وربما كانت مغامرة كهذه، هي وحدها التى تيسر الابتلاء والتنمية للقوى الممكنة لوجود خلق «فى أحسن تقويم» «ثم رددناه أسفل سافلين» ٤ ــ ٥ التين، وكما يقول القرآن الكريم: «ونبلوكم بالشر والخير فتنة» ٣٥:الانبياء(١)

وأثار المبطلون والمرجفون مشكلة الأوثان التى كانت تعبد فى الجزيرة العربية زمن البعثة المحمدية وقبلها ومنها ود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا وعجز فهمهم وإدراكهم عن الصلة بين هذه الأوثان وبين نوح ــ عليه السلام ــ حتى تجيء فى قصته.

جاء فى تفسير الرازى: هذه الأصنام الخمسة، كانت أكبر أصنامهم وإنها انتقلت عن قوم نوح الى العرب فكان «ود» لقبيلة «كلب» و(سراع) لهمدان و(يغوث) لمذحج، و(يعوق) لمراد و(نسر) لحمير، ولذلك سمت العرب بعبد (ود) وعبد (يغوث) ولا يمكن أن يقال:إن نوحا عليه السلام ــ وضعها فى السفينة، لأنه جاء لنفيها وكسرها.(٢)

---

(١) تجديد التفكير الدينى فى الاسلام : محمد إقبال ص ٩٦ وما بعدها.
(٢) تفسير الرازى : جـ ٧ ص ٢١٨.

ويقول ابن كثير: وأما مضمون ما جرى لنوح مع قومه مأخوذا من الكتاب والسنة والآثار، فقد قدمنا عن ابن عباس أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على الإسلام، رواه البخارى، ثم بعد تلك الفترة الصالحة، حدثت أمور افتضت أن آل الحال بأهل ذلك الزمان إلى عبادة الأصنام، وكان سبب ذلك ما رواه البخارى من حديث ابن جريح عن عطاء ابن عباس عن تفسير قوله تعالى:(وقالوا: لا تذرن آلهتكم، ولا تذرن ودا ولا سواعا، ولا يغوث ويعوق ونسرا) ٢٣نوح.

قال:هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن نصبوا الى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصابا وسموها بأسمائهم ففعلوا فلم تعبد اذاهلك أولئك، وتنسخ العلم عبدت، قال ابن عباس: وصارت هذه الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب بعد.، وهكذا قال عكرمة والضحاك وقتادة ومحمد بن إسحاق!!(١)

أما كيف بقيت تلك الأصنام، وكيف انتقلت الى العرب؟ فالشيطان الذى سول لأبناء الذين هلكوا أن يعبدوا هذه التماثيل لم يمت ــ والذين آمنوا بسيدنا نوح، ونجوا فى السفينة، قد نقلوا ما كان من أمر المشركين بعد أن استوت السفينة علي الجودى، وانتقل نوح ــ عليه السلام ــ الى الرفيق الأعلى، وخلف من بعد قومه خلف وخلف، والأخبار تنقل مشافهة ــ سابق عن لاحق ــ حتى جاء

(١) البداية والنهاية : ص ٥٠١ وما بعدها : الحافظ بن كثير.

«دعاء» الذين قالوا الله تعالى فيهم (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد نوح، وزادكم في الخلق بسطة) ٦٩ الأعراف.

وكانوا عربا جفاة حفاة عتاة كفارا إذ أنهم أول الأمم بعد الطوفان ـ عبدوا الأصنام.. وهكذا انتقلت إلى العرب.

ودارت الاستفسارات التالية على ألسنة المبطلين والمرجفين، ولاكتها افواههم مؤادها: كيف خفى علي سليمان ـ عليه السلام ـ حال مملكة سبأ، حتى يزوده بأخبارها الهدهد؟؟ ومن أين حصل للهدهد معرفة الله ـ تعالى ـ ووجود السجود له وإنكاره سجودهم للشمس وإضافة ذلك إلى الشيطان وتزيينه.؟؟

والجواب فى قول الله تعالى:(وما من دابة فى الأرض، ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم، ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون) ٣٨: الأنعام.

وفيه اشار إلي أن عالم الأحياء من إنسان وحيوان وطيور يرجع إلى أصل واحد، كانت منه جميع هذه المخلوقات فى أنواعها وأجناسها، والدليل على تلك التسوية بينها أسلوب القصر الذى يؤكد ذلك، فى إقامة كل جنس من الأجناس نظام حيانه بما يتناسب وطبيعته «كل مهيأ لما خلق له» وفى أسلوب معيشته وتوالده، وحملات أفراده بعضها بعض، أوصلاته بالقريب والبعيد من أجناس الحيوانات الأخرى، فكما أن الناس لهم نظام معين يمسكهم، وقوانين تحكمهم وتربط بينهم عادات وتقاليد ومثل وتراث، فقل ذلك على الأجناس الأخرى، فكل نوع له عالمه ، وله

لغتـه وعاداته وتقـاليده ونظام حـياته قال تعـالى: (وإن من شيء إلا يسبح بحمده، ولكن لا تفقهون تسبيحهم)٤٤: الأسراء.

وقضية الهـدهد مع سيدنا سليمان ــ عليـه السلام ــ لا تقل عنها روعة قـضيـة النملة التى نادت فى جنودها خوفـا عليهم وحـرصا على حـياتهم ــ «كـلكم راع وكلكم مسئـول عن رعيـته» خـافت عليـهـم من جنود سليـمـان عندمـا حـشـرهم ـــ أن يدوسـهم أو يحطموهم ساعة العرض والحشر، ولبى النمل أوامر قائده وسارعوا الى ثكناتهم وجحورهم، وتتصـدى هى لسليمان وتقف موقف الند للند، قائد أمـام قائد دفـاعا عن حيـاة مملكها مما يجـعل قائدا الإنس والجن والطير يبتسم لها ضاحكا ويـشكر ربه ويسأله أن يدخله فى رحـمتـه من عـبادة الصـالحين (وحـشر لسليـمـان جنوده من الجن والإنس والطيـر فهـم يوزعون حـتى اذا أتوا على واد النمل، قـالت نملة:ياأيهـا النمل ادخلوا مسـاكنكم لا يحطمنكم سليمـان وجنوده وهم لا يشعرون، فـتبسم ضاحكا من قـولها وقال: رب أوزعنى أن أشكر نعـمـتك التى أنعمـت على وعلى والدى وأن أعـمل صالحـا ترضاه، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين) ١٧ ـــ ١٩ النمل.

فـيا سـبحـان الله الذى أفـهم النملة والهدهـد تسبيحـه وعبـادته وشكره على نعـماته .. سـبحـان الله الذى ألهم الهدهد أن يجـيب علي سليـمـان ـــ وهو فى ريعـانه قـوته وأبهـة ملـكة ــ ويقـول له (أحطت بما لم تحط به، وجئتك من سبـأ بنبأ يقين، إنى وجدت امرأة تملكهم وأوتيت من كل شىء ولهـا عرش عظـيم وجدتهـا وقومـها

يسجدون للشمس من دون الله، وزين لهم الشيطان أعمالهم، فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون ألايسجدوا لله الذى ــ يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم) ٢٢ ــ ٢٦: النمل.

قال الهدهد ذلك وهو متأكد من نفسه معتد بها، وكأنما يثأر لها حين توعده سليمان بالتعذيب الشديد أو الذبح الأليم، قال تعالى:(وتفقد الطير فقال: مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين، لأعذبنه عذابا شديدا أو لأذبحنه، أو ليأتينى بسلطان مبين) ٢٠ــ٢١النمل [1]

وبعد فيا أيها المرجفون والمبطلون والمستشرقون والسوفسطائيون ويا أيها المبشرون والملحدون: أنظروا إلى القصص القرآنى نظرة موضوعية، وتخلوا عن ذاتيتكم وقوميتكم، فهو القصص الحق والا ما من سبيل الا ان يبعث الله من فى القبور ليخبروكم بحقيقتهم وأحداث حياتهم ومواقفهم التى عاشوها ولم يتطرق اليها شىء من الخيال أو الوهم أو الفروض، بل هى الواقع المخبر عنه بالحق الذى لا يأتيه الباطل من بين ولا من خلفه.. ومع ذلك فأنتم على ما أنتم عليه لا ترون لمعة من لمعات الهدى ابدا ولو جاءتكم الآيات مبصرة، قال تعالى: (ولو فتحنا عليهم بابا من السماء، فظلوا فيه يعرجون، لقالوا: إنما سكرت أبصارنا، بل نحن قوم مسحورون) ١٤ ــ ١٥ : الحجر.

(لعمرك انهم لفى سكرتهم يعمهون) ٧٢ الحجر.

---

(١) انظر تفسير الرازى جـ ٧ ص ٢١٨ وما بعدها.

الوحدة الفنية فى القصة القرآنية

الإعجاز الفنى

القرآن الكريم: هو الكلام المعجز المنزل عليه النبى محمد ــ صلى الله عليه وسلم ــ المكتوب فى المصاحف، المنقول عن التواتر والمتعبد بتلاوته وليس هناك أفضل ولا أبلغ من تعريف الرسول الكريم لهذا القرآن العظيم «كتاب الله ــ تبارك وتعالى ــ فيه نبأ من قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هوالفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله، هو حبل الله المتين ، ونوره المبين، والذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تتشعب معه الآراء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يمله الأتقياء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضى عجائبه، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا: (إنا سمعنا قرآنا عجبا) من علم علمه سبق، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم.

فلا غرو أن يأتى القرآن وافيا بكل مطالب الحياة الإنسانية، وينزل على رسول أوتى جوامع الكلم، علمه الله من لدنه، بعد أن كان

أميا لا يقرأ ولا يكتب، فتحدى به أرباب الفصاحة والبيان وعجزوا أن يأتوا بمثله، أو يأتوا بعشر سور مثله، أو بسورة من مثله.

(قل لئن اجتمعت الإنس والجن علي أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) ٨٨ الاسراء.

(أم يقولون افتراه، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) ١٣: هود.

(وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله). ٢٣: البقرة.

ومن أوصاف الله ـ تعالى ـ (إنه لقرآن كريم ـ في كتاب مكنون، لا يمسه إلا المطهرون) ٧٧ ـ ٧٩: الواقعة (وإذ صرفنا إليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين، قالوا: يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم، يا قومنا أجيبوا داعى الله وآمنوا به)٢٩ ـ ٣١ الأحقاف.

(وبالحق انزلناه وبالحق نزل وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا، وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا، قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبلة، إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا، ويقولون سبحان ربنا، إن كان وعد ربنا لمفعولا، ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا) ١٠٥-١٠٩: الاسراء.

(وما كان هذا القرآن أن يفتري من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه) ٢٧ يونس

(نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن) ٣:يوسف

(ولقد اتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم) ٨٧: الحجر (إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم)٩: الاسراء (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) ٨٢: الاسراء (ولقد صرفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل) ٨٩:الاسراء (يس والقرآن الحكيم إنك لمن المرسلين) ١-٣:يس (ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر) ٢٢:القمر

ولقد وصف الله- سبحانه وتعالي- القرآن الكريم باوصاف اخري غير مشتقة من من لفظة «القرآن» جاء منها قوله تعالي: «نور» (يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نورا مبينا) «١٧٤ : النساء». ومنها: «هدي» و١١٤ «شفاء» و«رحمة» و«موعظة» (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدوروهدي ورحمة للمؤمنين) ٥٧: يونس ومنها • «مبارك» (وهذا كتاب انزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه) ٩٢: الأنعام. ومنها «مبين» (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين) ١٥ المائدة.

ومنها «بشرى»(مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين) ١٥ البقرة، ومنها «عزيز» (إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم وانه لكتاب عزيز) ٤١ فصلت.

ومنها «مجيد» (بل هو قرآن مجيد) ٢١ البروج.. ومنها «بشيرونذير» (كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون، بشيرا ونذيرا) ٣ـ ٤ فصلت.

والحقيقة أن القرآن معجز فى كل شىء، معجز فى الفاظه وأسلوبه، الحرف الواحد منه فى وضعه من الإعجاز الذى لا يغنى عنه غيره فى تماسك الكلمة والكلمة فى موضعها من الجملة، والجملة فى موضعها من الإعجاز فى تماسك الآية معجز فى بياه ونظمه، لايتصل الباحث الى سر جانب منه حتى يجد وراءه جوانب أخرى، يكشف عن سر اعجازها الزمن «ما أشبة القرآن الكريم فى تركيب إعجازه وأعجاز تركيبه بصورة كلامية من نظام هذا الكون الذى اكتنفه العلماء من كل جهة، وتعاوروه من كل ناحية، وأخلقوا جوانبه بحثا وتفتيشا، ثم هو بعد لا يزال عندهم على كل ذلك ـ خلقاجيدا، ومراما بعيدا».(١)

معجز فى معانيه التى كشفت الستار عن الحقيقة الانسانية ورسالتها فى الوجود، اذ هو صورة حية للحياة والكون والانسان، أنما صار معجزا لأنه جاء بأفصح الألفاظ، فى أحسن نظم التأليف، مضمنا أصح المعانى من توحيد الله وتنزيهه في صفاته، ودعاء إلى طاعته وبيان لمنهاج عبادته، فى تحليل وتحريم، وحظر وإباحة، ومن وعظ وتقويم، وأمر بمعروف ونهى عن منكر، وإرشاد إلى محاسن الأخلاق، وزجر عن مساوئها، مودعا أخبار القرون الأولى.

وما نزل من مثلات الله بمن عصى وعاند منهم، منبئا عن الكوائن المستقبلة فى الأعصار الماضية من الزمان، جامعا فى ذلك بين الحجة والمحتج له، والدليل فى المدلول عليه، ليكون ذلك أؤكد للزوم ما

---

(١) أنظر تاريخ آداب العرب للرافعى ٢/ ٢٢٥

دعا إليه، وإنباء عن وجوب ما أمر به، ونهى عنه، ومعلوم أن الإتيان بمثل هذه الأمور، والجمع بين أشتاتها حتى تنتظم وتتسق أمر تعجز عنه قوى البشر، ولا تبلغه قدرتهم». [١]

ولما كان القرآن معجزا بكل ما يتحمله هذا اللفظ من معنى، فهو معجز بعلومه ومعارفه، ومعجز فى تشريعه وصيانته لحقوق الإنسان وتكوين مجتمع مثالى تسعد الدنيا على يديه.

لذا سوف نقصر كلامنا على معجزاته الفنية فى القصة القرآنية، إذ تقوم القصة على الوحدة العضوية بشطريها: وحدة الموضوع ووحدة الجو النفسى فهى محاكاة [٢] فعل تام له بداية ووسط ونهاية، سواء كان بنية واحدة، أو عدة حلقات متتابعة، تقوم فنيا مقام الاقناع المنطقى، عن طريق الايحاء الفنى، أو التصوير التشخيصى للنماذج الإنسانية، أو رسم الشخوص المتباينة، أو عرض المواقف المختلفة، حيث يعلو الخط الدرامى ويهبط، ويتأزم وينفرج، وتنبع الأحداث طبيعية يغاير بعضها بعضا، ولكنها تتضافر لشد أزر النهاية به، ويتحقق الهدف ويتم التطهير [٣] الذى يستثير كوامن الوجدان، ويوقظ الأحاسيس والمشاعر، فتنفذ العظة إلى العقول من كل جانب، وتجد العبرة طريقها إلى القلوب من كل حدب وصوب.

---

(١) بيان إعجاز القرآن للخطابي ، والبرهان للزركش ص ١٠١ جـ ٢

(٢) المحاكاة هنا : بمعنى القص والحكاية.

(٣) عقاب الرذيلة وثواب الفضيلة.

والوحدة الغنية فى القصة وسيلة من وسائل التربية، وأداة من دوات التعليم، إذ يكتسب الإنسان العلم أو المعرفة من مصدرين رئيسيين:

مصدر إلهى ومصدر بشرى، وهذان المصدران متكاملان، ويرجعان أساسا إلى الله ـ تعالى ـ الذى خلق الإنسان وأمده بأجهزة الإدراك واكتساب المعرفة «وعلم آدم الأسماء كلها، ثم عرضهم على الملائكة، فقال: أنبؤنى بأسماء هولاء إن كنتم صادقين، قالوا: سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا، إنك أنت العليم الحكيم، قال: يا آدم أنبئهم بأسمائهم، فلما انبأهم بأسمائهم قال: ألم أقل لكم: إنى أعلم غيب السموات والأرض، وأعلم ما تبدون، وما كنت تكتمون). «٣١ ـ ٣٣: البقرة». (الرحمن. علم القرآن، خلق الإنسان علمه البيان) «١ ـ ٤ : الرحمن» (اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذى علم بالقلم، علم الإنسان مالم يعلم). «١ ـ ٥: العلق». (وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا، ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا). «٥٢ : الشورى». (وداوود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث، إذ نفشت فيه غنم القوم، وكنا لحكمهم شاهدين، ففهمناها سليمان، وكلا آتينا حكما وعلما). «٧٨ ـ ٧٩: الأنبياء». «وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون). «٨٠: الأنبياء». «وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء). «٢٥١: البقرة». وكذلك مكنا

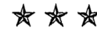
ليوسف فى الأرض، ولنعلمه من تأويل الأحـدل هى وضعية قد على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون، ولما بلغ أشد وعلما). «٢١ ـ ٢٢: يوسف».

وبهذا

قال: إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله، وأعلم من الله مالا تعلمون «٨٦: يوسف». (وإنه لذو علم لما علمناه). «٦٨: يوسف». (وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة، وعلمك مالم تكن تعلم). «١١٣: النساء». (فوجدا عبدا من عبادنا آتيناه رحمة من عندنا، وعلمناه من لدنا علما، قال له موسى: هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا). «٦٥ ـ ٦٦: الكهف». (واتقوا الله ويعلمكم الله) . «٢٨٢: البقرة».

والوحدة الفنية فى القصة ركيزة من ركائز الوسائل التعليمية والتربوية لإثارة انتباه المتلقى واجتذاب مشاعره، فضل عن إثارة الدافع للتعليم حتى تتهيأ نفسه للدرس فى شوق يستجمع قواه العقلية، ويرغبه فى الاستماع والمتابعة إذ شاهد تحرك الشخوص وطبائعها، وكيف كانت عصبية موسى وتحمسه لواحد من جنسه، ويرى نموذج الهدوء والتسامح والحلم فى شخصية أبينا إبراهيم ـ عليه السلام ـ ويعيش مع آية الوعى والحصانة والإباء والتعفف الماثل فى شخصية يوسف ـ عليه السلام ـ ويطير على بساط الريح ليصاحب شخصية الرجل والملك والنبى سليمان ـ عليه السلام ـ ويقتدى بمن بعثه الله رحمة وهدايا ونورا للعالمين فى شخصية خاتم الأنبياء والمرسلين «محمد» عليه الصلاة والسلام.

والعلاقة بين الوحدة الفنية والوحدة العضوية، كعلاقة الفرد بالمجتمع والعضو بالجسد، فهى التى تربط بين الموضوع وعناصره، وبين الموضوع ووحدة المشاعر والانفعالات التى تنبعث منه، وبعبارة أخرى هى التى توجد الصلة بين طبيعة الموضوع والأثر الناتج عنه، فهى التى ترتب الأفكار وتنظمها، وهى التى توحى بالمثل والقيم، وهى التى تمد الخيال بالصور وهى التى تنتقى الألفاظ والجمل، وهى التى تدعم المحاكاه والقص بالرسم والتشخيص والإيقاع والموسيقى، وهى التى تبعث الحركة والحيوية فى الصراع والمحاورة، وهى التى تكسب العمل دلالة اجتماعية وتصيغه بالصيغة الموضوعية.



اللغة...والأسلوب

اللغة وظيفة عضوية فى الإنسان، وهى أساس طبيعى للفضائل والصلات الاجتماعية والقومية والسياسية، ووحدة اللغة والكلمات ـ وهى بمقاطعها ـ نتيجة لحركة صوتية، ولكن هذه الحركة الصوتية فى الحقيقة عملية عقلية، إذ مجرد نطق الكلمة يدل على شىء ما، فيحدث فى الفكر حركة ما، وهذه الكلمات رموز لمعانى أشياء، أى رموز لمفهوم الأشياء الحسية أولا، ثم التجريدية المتعلقة بمرتب أعلى من مرتبه الحس، فهى رموز لحالات نفسية هى مادة الفكر، فالصوت اللغوى وظيفة عقلية لها دلالتها على الكلام الداخلى، وهذه الحالات النفسية التى تثيرها اللغة ليست فردية محضة، لأن

دلالتها على الأشياء ومعانيها ليست طبيعية، بل هى وضعية قد اصطلح عليها.(١)

فالمعانى المشتركة بين الناس هى التى تعطى القيمة للغة، وبهذا وحده نستطيع أن نفكر بالكلمات، ونبنى حججنا عليها بوصفها رموزا للأشياء، وهى فى الواقع رموز لتجارب سابقة أفادها الإنسان بالحس، والذاكرة تحتفظ بمجموعة التجارب الحسية، وهذه التجارب تهدى الإنسان إلى المبادىء العامة العالمية، وذلك عن طريق القياس والحجة، إذ بواسطتهما نتجاوز مرحلة الحس، والقيام بالتجارب بأنفسنا، وذلك يحدث عندما نشاهد مسرحية أو قصة حية نابضة.

فنشارك فى أحداثها وصراعاتها بأحاسيسنا ومشاعرنا وخلجاتنا.

«وصلة الكلمات اللغوية بالكلام النفسى ـ من حيث هى رموز له ـ كصلة الكلمات المنطوقة، من حيث إن الأولى رموز للثانية، فالكلمات المنطوقة رموز لحالات النفس، والكلمات المكتوبة رموز للكلمات المنطوقة، والكتابة ليست واحدة عند كل الناس، شأنها فى ذلك شأن الكلمات المنطوقة، ولكن المحاولات النفسية التى يعد التعبير دليلا مباشرا عليها هى عند كل الناس، شأنها فى ذلك شأن الأشياء التى تعد هذه الحالات صورا لها.(٢)

(١) انظر النقد الأدبى الحديث ص ٦٢٥ وما بعدها د. محمد غنيمى هلال
(٢) المرجع السابق ص ٣٩ وما بعدها.

وغاية اللغة تحقيق الصلات بين الإنسان والأشياء، فهى تستخدم أداة للتربية والمتعة والتعبير عن الفن والمحاكاة، وقد تكون وسيلة للتلاعب بالمعانى لتظهر المستحيل ممكنا والممكن مستحيلا، فهى من مقتضيات الحياة المدنية ومستلزماتها، فبفضلها تميز الإنسان عن الحيوان، ودراسات العلوم والآداب وطبيعة الإنسان والأشياء.

ومارس أهل العربية فنون لغتهم حتى شبت وترعرعت، واستظهروا شعرها ونثرها وحكمها وأمثالها وقصصها وأساطيرها، وطاوعهم البيان العربى والفصاحة والبلاغة، حقيقة ومجازا، إيجازا واطنابا، وارتقت اللغة بفنون القول وضروبه.

وجاء القرآن الكريم بلغة قريش ألفاظا وحروفا، تركيبا وأسلوبا واتسافا وائتلافا، وجرسا وايقاعا، كلمات وجملا، وعبارات وفقرات، فى النفى والاثبات، والذكر والحذف، والتعريف والتنكير، والتقديم والتأخير، والحقيقة والمجاز، والإطناب والايجاز، والعموم والخصوص، والاطلاق والتقييد (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها، مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) «٢٣: الزمر». «ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) «٨٢: النساء».

قال القاضى أبو بكر الباقلانى: «والذى يشتمل عليه بديع نظمه المتضمن للأعجاز وجوه: منها ما يرجع إلى الجملة، وذلك أن نظم القرآن على تصرف.

ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به

ويتميز فى تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد، وذلك أن الطرق التى يتقيد بها الكلام البديع المنظوم، تنقسم إلى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفى، ثم إلى أصناف الكلام المعدل المسجع، ثم إلى معدل موزون غير مسجع، ثم إلى ما يرسل ارسالا، فتطلب فيه الاصابة والافادة وافهام المعانى المعترضة على وجه بديع، وترتيب لطيف، وإن لم يكن معتدلا فى وزنه، وذلك شبيه بجملة الذى لا يتصنع له، وقد علمنا أن القرآن خارج عن هذه الوجوه، ومباين لهذه الطرق، فليس من باب السجع، وليس من قبيل الشعر، وتبين بخروجه عن أصناف كلامهم، وأساليب خطابهم أنه خارج عن العادة، وأنه معجز، وهذه خصوصية ترجع إلى جملة القرآن الكريم، وتميز حاصل فى جميعه». (١)

فإذا أردنا أن نستقصى اعجاز القرآن فى ألفاظه لا نقدر، وحسبنا أن نقتطف بعض ما ورد فى القصص كقصة إبراهيم ـ عليه السلام ـ فى بناء البيت العتيق الذى اصطلع ببنائه إبراهيم واسماعيل عليهما السلام.

جاء فى سورة البقرة: (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال:

- إنى جاعلك للناس إماما (قال):
- ومن ذريتى (قال)

(١) انظر أعجاز القرآن : أبو بكر الباقلانى

- لا ينال عهدى الظالمين

فلقطة «ابتلى» ما أكثر معانيها!! وكم تحمل فى طياتها من ظلال، وحتى لا يذهب المفسرون بعيدا جاءهم تفسيرها فى نفس الآية (إنى جاعلك للناس إماماً) والإمامة- إن كانت فضلا من الله ونعمة- ابتلاء لما لها من أعباء وتبعات.

ويمضى السياق القصصى (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا، واتخذوا من مقام : إبراهيم مصلى، وعهدنا إلى ابراهيم وإسماعيل: أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع والسجود). ١٢٥: البقرة.

ولفظة «البيت» هنا معرفة إشارة إلى التنويه بالبيت الحرام، فإذا ذكر البيت كان هو البيت الحرام

ولفظة «أمنا» منتهى الإيجاز البلاغى: أمنا مطلقا يصيب كل شيء، أماكنه آمنه، والناس آمنون، والحيوان والنبات والطير كلها آمنة مطمئنة ساكنة.

ولفظة «واتخذوا» التفات من غيبة إلى حضور، ومن الأسلوب الخبرى (وإذ ابتلى إبراهيم ربه...) إلى الإسلوب الإنشائى الطلبى (واتخذوا) لتعظيم هذا البيت وعظيم الأمر المتعلق به.

ولفظة «وعهدنا» فيها من حركة صوتية، وهى فى الحقيقة عملية عقلية، فالتكليف وتنفيذ الأمر- يقتضى الحركة وتشمير السواعد كعامل حسى، أما العامل العقلى المجرد هو فى أداء الأمانة العلمية، وعقد النية على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ثم فى اللفظة

إشارة إلى إنه كان بيتا لله قبل أن يعهد الله إلى إبراهيم وإسماعيل بتطهيره من الأوثان التى عبدها العابدون فيه.

ويمضى السياق ويطلب إبراهيم من ربه الأمن لهذا البلد ولأهله الثمرات وهكذا الطيب يعبق ريحه فيطيب الأجواء.. (وإذ قال إبراهيم): - رب اجعل هذا بلداً آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر. (قال): - ومن كفر فأمتعه قليلا، ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير «١٢٦:البقرة».

ولفظة «بلدا» فى سورة البقرة، و(البلد) فى سورة إبراهيم قال تعالى (رب اجعل هذا البلد آمنا). «٣٥:إبراهيم» وذلك قمة الإعجاز، فحين ترك إبراهيم -عليه السلام- هاجر وإبنها إسماعيل، كانت بلدا غير معمورة، ولم تكتمل بعد، فلما عاد إليها بعد مدة كانت قد أخذت تعمر، فهى البلد.

ولفظة (يرفع) فى قوله تعالى: «وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا. إنك أنت السميع العليم، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك، وأرنا مناسكنا، وتب علينا انك انت التواب الرحيم ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم). «١٢٧-١٢٨:البقرة».

فالمعنى الذى اصطلح عليه فى «يرفع غير يبنى أو يشيد، فهى توحى بأن البيت كان معدا بيد القدرة، وكان قائما على قواعد، وإنما بوأ الله لإبراهيم مكانة. قال قتادة: ذكر لنا رسول الله -صلى

الله عليـه وسلم- قـال يومـا لأصـحـابه: «هل تـدرون مـا البـيت المعمور؟ قالوا: الـله ورسوله أعلم. قال: مسجد فى السـماء بحيال الكعبـة لوخرلخر عليهـا، يصلى فيه كل يوم سبـعون ألف ملك، إذا خرجو منه لم يعودوا آخر ما عليهم».

ومن ذلك ما قاله الـسدى: لما أمر الله إبراهيم وإسماعـيل أن يبنيا البـيت ثم لم يدريا أين مـكانه حـتـى بعث الله ريحـا يقـال لـهـا «الخجـوج» لها جنـاحان ورأس فى صورة حـية، فكنـست لهـمـا ما حول الكعبة عن أساس البيت الأول، وأتبـعا بالمعاول يحفران حتى وضـعـا الأسـاس، وفى ذلك يقـول الله تبـارك وتعـالى: «وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البـيت) فلما بلغـا القواعـد بنيا الركن، قـال إبراهيم لإسماعيل: يا بنى اطلب لى الحجر الأسود من الهند، وكان أبيض، ياقوتة بيضاء مثل النعامـة، وكان آدم -عليه السلام- قد هبط به من الجنة، فاسود من خطايا الناس، فجاءه إسمـاعيل بحجر فوجده عند الركن فـقال: يا أبتـى. من جاءك بهـذا؟ قـال: جاء به من هو أشـد منك، فـبنيـا وهمـا يدعـوان الله (ربنا تقـبل منا إنك أنت السـمـيع العليم.....).

هكذا يستجيب الله لعباده الصالحـين ويتقبل ممنهم، فجعل منهما أمة مـحمـد، وبعث منهم النبى -صلى الله عليـه وسلم- وفى هذا يقول: «أنا دعوة أبى إبراهيم وبشرى أخى عيسى».

قلنا من رحمة الله -تعـالى- أن جعل القرآن يفسر بعضـه بعضا، حتى لا تـتشعب الآراء فى التـفسـير والألفـاظ والعبـارات والجمل

والآيات، فـالآية تزداد وضـوحـا بمقارنتـهـا بآية أخـرى، لأن دلالة القرآن تمتاز بالدقة والإحاطة والشمول وسنوضح طائفة -كنماذج- مـختلـفة من الألفـاظ القـرآنيـة بدلا لانها وإيحـاءاتهـا وبلاغـتهـا وإعجازها، استقيناها من كتاب الله الحكيم.

من ذلك قـوله -تعالـى- (وهو معكم أينمـا كنتم) «٤: الحـديد» فالتـأويل أن الله مع كل عبـاده بالقدرة والعلم والرعـاية، لأن حمل المعية على قرب الله بذاته مستحيل.

وقوله تعالى: (فلا تقل لهما أف). «٢٢: الاسراء» فإذا كان النهى عن التضـجر والضيق بالوالدين، قـد ورد فى الآية، فمن باب أولى أن تكون الاساءة إليـهما بالـضرب وما شـابه ذلك محرمـة لقوله - تعـالى-: (وقـضى ربك ألا تعبـدوا إلا إياه، وبالوالديـن إحسـانا). «٢٢: الإسراء».

وقـوله -تعـالـى-: (أم يحـسـدون الناس على مـا آتـاهم الله من فـضله) «٥٣: الـنسـاء» فلفظـة «الناس» من العـام الـذى يراد به الخصوص، والمقصود بها إنسـان واحد هو محمد -صلى الله عليه وسلم- جمع ولم يفرد لأنه المثل الأعلى للإنسانية.

ولفظة «الهلوع» قـد فسرها السـياق القرآنى فى قـوله تعالى: (إن الإنسان خلق هلوعا: إذا مسه الشر جزوعا،، وإذا مسه الخير منوعا) «٩-٢١: المعـارج». ولفظة «عسـعس» فى قوله -تعـالى-: (والليل إذا عسعس). «١٧: التكوير» صالحة لإفادة الإقبال والإدبار.

ولفظة «تـنفس» فى قـوله تـعـالى: (والصـبـح إذا تنفس). «١٨: التكوير».

توحى بالحـيـاة ودب النشـاط فى الأحـيـاء عـلى وجـه الأرض والسماء.

ولفظة «يغـشى» فى قـوله -تعالى-: (يـغشى الليل النـهار يطلبه حثيثا) «٥٤: الأعراف» شخـصت الليل مسرعا فى طلب النهار فلا يستطيع له دركا

ولفظة (يغشـيكم) فى قوله تعالى: (إذ يغشـيكم النعاس أمنة منه) «١١:الأنفال» خلقت الحـياة على الظاهرة الطبـيعيـة وهى النعاس، فطرقت العيـون، ولبست الأجساد، فكانت باعـتا من بواعث الأمن والطمأنينة.

قوله تعـال: (وجوه يومـئذ ناضرة إلى ربـها ناظرة). س٢٢-٢٣ القيامة«.

فإن السباق يدل على جـواز الرؤية، ولكن قوله تعالى: (لا تدركه الأبصـار وهو يدرك الأبصـار). «الأنعـام». يجـعلنا نتـردد بين نفى الرؤية أصـلا، وبين نفى الأحاطة والحـصر، دون أصل الرؤية، فـهو سـبـحـانه وتعـالى: لطيف لا يرى، إذ لو رؤى لتـحـدد، ولو تحـدد لتجسم، ولو تجسم لكان مركبا، ولو كان مركبا لكان مخلوقا، سئل الإمـام على -رضـى الله عنه- هل رأيت ربك؟ فـقـال: «نور أنى أراه؟ وإذن فـالدليل العقلى والدليـل النقلى يؤكدان جـمـيـعا عـدم إمكان رؤية الله -تعـالى- : (وجوه يومـئذ ناضرة إلى ربـها ناظرة)

فى رأى المعتزلة؟ يقـولون فى تأويل (ناظرة) إنه من قول الناس: أنا إلى فلان ناظر مـا يصنع بى، يريد التوقع والرجـاء. والمعنى أنهم لا يتوقـعون النعمة والكرامـة إلا من ربهم، كما كانوا لا يخـشون ولا يرجون إلا إياه»[1]

نخـلص من هذا كـله، بأن المـراد بالنظـر إلى اللـه، هو النظـر إلى رحمـة الله والطمع فى رضـوانه، والتعلق بالرجـاء فيـه كمـا يقـول سـبـحـانه- (إنا إلـى ربنا راغـبـون)«٣٢:القلـم». (وإنا إليـه راجعون)«١٥٦ :البقرة».

فإذا ما تطرقنا إلى إعجاز القرآن البلاغى، ألفينا المجاز يلعب دوره فى التشبيـهات والاستفسارات والكنايات والمجـاز المرسل وعلاقاته والتعبيرات التصويرية الحسية والتشخيصية والتجسيدية والتجسيمية والتمـثيلية والتـصوير الفنى، والإيقـاع الموسيقى،، والصـور الكلية ووسـائلها الثـلاث «الصوت واللون والحـركة» كل أولئك تجـمعـه الوحدة الفنية فى القصة القرآنية. فما هو المجاز؟؟

المجاز هو نقل أسم يدل على شىء إلى شىء آخـر، والنقل يتم إما من جنس إلى نوع، أو من نوع إلـى جنس، أو من نوع إلى نوع، أو من جنس إلى جنس، وبإيجاز شديد: كل ما يتجاوز التعبير الحقيقى البسيط هو أقرب معنى إلى المجاز.

والمجال لا يتسع لتعدد هذه الأنواع والتطبيق عليـها بأكثر من مثال أو أثنين فلتقطف من كل بستـان زهرة، ومن كل قصة صورة، ومن

(١) انظر الكشاف ٢/٤٤٠ .

كل حادثة تشبيها أو استعارة فمثلا: فى قصة العبد الصالح زكريا نبى الله -عليه السلام- إذ وقف ذليلا فقيرا بين يدى من بيده ملكوت السموات والأرض، وقف يشكو إلى الله فقال (إنى وهن العظم منى، واشتعل الرأس شيبا). «٤ : مريم». ففى قوله: «وهن العظم منى» أبلغ فى الإبانة عن الضعف وذهاب القوة من قوله: «وهن عظمى» إذ أن المقولة الأولى تشير إلى أنه لا عظم معه، بل ذهب هذا العظم، وما بقى منه فإنه لا غناء فيه، أما المقولة الثانية فإنها تحدث أن معه عظما، وأنه لازال يملكه ويحرص عليه.

وأما قوله «واشتعل الرأس شيبا» أبلغ فى الإبانة عن استيلاء الشيب على الرأس كله على العموم والشمول، إذ شاع فيه وأخذه من نواحيه، وأنه استقر به وعم جملته، حتى لم يبق من السواد شيء، أو لم يبق منه إلا مالا يعتد به، وهذا ما لا يكون إذ قيل: «اشتعل شيب الرأس». «أو الشيب فى الرأس».

ونظير هذا قوله تعالى: (وفجرنا الأرض عيونا). «١٢ :القمر».

فالتفجير للعيون فى المعنى، وواقع على الأرض فى اللفظ، كما أسند هناك الاشتعال إلى الرأس، وقد حصل بذلك معنى الشمول ها هنا مثل الذى حصل هناك.

وهذه هى الوحدة الفنية التى تتجلى فى القصة القرآنية، والتى تجعلنا ندرك الخصائص العامة المشتركة التى يصدر عنها كتاب الله فى تصويره وتعبيره فيهز النفوس ويحرك المشاعر، ويفيض الدموع.

والصورة التالية حافلة بالحركة والحياة، وقد أغنت الألفاظ فى

رسم اللوحـــة وأتمتــهـا بمـا لا يتم من الإيداع بالريـشـة والألوان... وموضوع اللوحـة «متاع الحياة الدنيا، مـا حقيقته» ومـا مدته؟؟ وما العبرة منه؟؟ يقول الله -تعالى- (إنما مـثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء، فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام، حتى إذا أخـذت الأرض زخـرفـهـا وازينت، وظن أهلهـا أنهم قـادرون عليـها، أتاها أمـرنا ليـلا أو نهارا فـجعلنـاها حصـيدا كـأن لم تغن بالأمس كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون). «٢٤:يونس».

وفحـوى اللوحة: ماء تنزل من السـماء، يمتصـه النبات فيـمرع به ويزدهر بمخـتلف ألوانه وأشكاله، وكان تأثيـر ذلك على الأرض أن اكـتست وازينت كـالعروس فى ليلـة جلوتها، وأهلهـا من حولهـا معـجبون ومزهوون، إذ الفـضل منهم وإليهم فى تنشئـتها وتربيتـها وإعـدادها لهـذه الليلة وتلك الغـاية، وفى وسط هذا النمـاء المزدهر والخصب المرع، والفـرح الغامر، والاطمئنان التـام - أتاها أمر الله فى ومضة، وفى خطفة، فإذا هى معـدومة الأمن والاطمئنان، مجتثة الثمار والأزهار، مسلوبة الزينة والخصب والنماء.

«قد استـخدمت فى هذه اللوحة الوسائل المقصـرة لعرض مراحل النبات:

فالفـاء التعقيـبية تطوى المشـاهد بسرعة عظيـمة، ولكن أهل هذه الأرض المتمتعين بنباتها البهيـج يمتد بهم الغرور، غارقين فى متعها، متقلبين فى نعماتها، مسحورين بزخرفها فاستخدمت «حتى» الدالة على امتداد الصدر امتداداً يعرف أوله ويجهل منتهاه. وأما الأرض

فشخصت مرتين، وقامت بحركتين، إذا أخذت بنفسها زخرفها كما تفعل العروس فى يوم جلوتها، وتطلب الزينةوسعت إليها فلم تزين، ولكنها ازينت. وأما أهل الأرض فانتفخت أوداجهم زهوا واختيالا حتى ظنوا أنهم قادرون على كل شىء وفى لحظة خاطفة يأتى أمر الله فيطوى تلك الأخبلة الكواذب فى وقت كلمح البصر»(١).

والصورة الاتية رسمت لوحة للاستعارة الحسية لمعقول عقلى بطريقة التجسيم والتشخيص والتخييل يقول الله - سبحانه وتعالى: (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق). «١٨: الأنبياء». فالقذف والدفع مستعاران محسوسان، والحق والباطل مستعار لهما وهما معقولان، هذه هى الخطوط الرئيسية لهذه الصورة الاستعارية، ولكن ماذا فى القذف من ايماء؟ وفى الدفع من اشعاع وظلال؟ إن الحق - وهو معنى مجرد - أشبه بالجسم القوى العنيف الذى ينفذ فى جسم الباطل الضعيف الخفيف، فيرزخ الباطل تحته، ويعانى من وطئته الشديدة التى تدفعه وتكاد تلصقه بالتراب، فى دفع الحق الباطل وأزهاق روحه، والتخييل فى تصور نوع الثقل الذى تحدثه حركة القذف، ثم الدفع، ثم الازهاق، فأنها أصوات شداد توشك أن تكون صدى لعظام الباطل وهى تتحطم وتقعقع، «ولقد أصاب الشريف الرضى حين لاحظ أن الدفع إنما يكون عن وقوع الأشياء الثقال،

---

(١) انظر: مباحث فى علوم القرآن ص ٣٢٣ د. صبحى صالح.

وعلى طريق الغلبة والاستعلاء، فكأن الحق أصاب دماغ الباطل فأهلكه». [1]

وليس فى الصورة التالية استعارة معقول لمحسوس فقط، وإنما اللوحة تشخيص لجهنم جعل المشهد حافلاً بالحياة والحركة، يقول الله - تبارك وتعالى -: (إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهى تفور، تكاد تميز من الغيظ) «٧-٨: الملك». فهى مغيظة محنقة، تحاول أن تكظم غيظها حين ألقى إليها المجرمون فتلقتهم بألسنة لهبها،وتلفقتهم وهى تئز وتشهق، فاستعيرت لجهنم شخصية آدمية، لها انفعالات وجدانية، وخلجات عاطفية، فهى تشهق شهيق الباكين، وهى تغضب وتثور، ولها نفس حادة الشعور. «ولقد تملى الشريف الرضى جمال هذه الصورة حين رأى أن الله - سبحانه - وصف النار بصفة المغيظ الغضبان الذى من شأنه أن يبالغ فى الانتقام، ويتجاوز الغايات فى الإيقاع والإيلام»[2].

وفى قصة موسى مع العبد الصالح يقول تعالى: (فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما، فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فأقامه) «٧٧: الكهف».

أقام العبد الصالح هذا الجدار المتداعى الميت الذى يشبه أهل هذه القرية فى موات الانسانية والمروءة والشهامة عندهم، فإذا بالجدار قد دبت فيه الحياة وسرت فى كيانه، فثبتت قواعده، واعتدل قوامه.

---

(١) انظر مجازات القرآن ص ٢٢٨ الشريف الرضى.

(٢) نفس المصدر ص ٣٣٩ .

يقول السيوطى: «شبه ميلانه للسقوط بانحراف أهل الحى، فأثبتت له الارادة التى هى من أخص خواص العقلاء» [(١)].

والصورة الآتية ننقلها كما هى حتى لا يضيع تأثيرها إذا اختزلناها، وقد وردت شاهداً على أن الأداة المفضلة فى أسلوب القرآن هى التصوير، تصوير باللون وتصوير بالحركة وتصوير بالتخييل يقول «سيد قطب». تبين الآية التالية أن الذين كفروا لن ينالوا القبول عند الله، ولن يدخلوا الجنة اطلاقاً، وأن القبول أو الدخول أمر مستحيل. هذه هى الطريقة الذهنية للتعبير عن هذه المعانى المجردة، ولكن اسلوب التصوير

يعرضها فى الصورة الاتية: (إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها، لا تفتح لهم أبواب السماء، ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط). «٤٠ : الأعراف».

وتدعك ترسم بخيالك صورة لتفتح أبواب السماء، وصورة أخرى لو لوج الحبل الغليظ فى سم الخياط، وتختار من أسماء الحبل الغليظ اسم «الجمل» خاصة فى هذا المقام، وتدع للحس أن يتأثر عن طريق الخيال بالصورتين ما شاء له التأثير، ليستقر فى النهاية معنى القبول ومعنى الاستحالة فى أعماق النفس، وقد ورد إليها عن طريق العين والحس - تخييلاً - وعبر إليها من منافذ شتى، فى هيئة وتؤدة، لا من منفذ الذهن وحده، فى سرعة الذهن التجريدية»[(٢)].

---

(١) الإتقان: ٧٦/٢ السيوطى .

(٢) انظر : التصوير الفنى فى القرآن ص ٣٤ سيد قطب

وفى قصة الثلاثة الذين خلفوا عن الغزو مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فالآية تقول:

(وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم، وظنوا ألا ملجأ من الله إلا إليه، ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم). «١١٨: التوبة». فقد بلغت «الكتابة» هنا عن الندم والحسرة مبلغاً مجسماً، والضيق النفسى المعنوى يصير ضيقا حسبا انتقل وتحرك من نفوسهم إلى الأرض التى يعيشون عليها، فلم تسعهم أنفسهم ولم تسعهم أرضهم فاختنقوا إذ لم يجدوا لهم ملجأ ولا مفرا، ولا مأوى ولا راحة حتى قبل الله توبتهم.

هذا هو الندم وتلك هى الحسرة: حالات نفسية محضة، تجريدية وليست حسبة تحولت إلى حركات ذات جسم له ثقل وله وطأة، لم يستطع الثلاثة حمله، وعانوا منه ما عانوا حتى أزاح الله عنهم هذا الحمل الثقيل. فأى كتاب أبلغ من هذه الكتابة، لقد صيرت الفكر المجرد إلى صور محسة فاستحالت المبالغة بلاغة، وصار التهويل تخييلاً. حقاً إنه لقرآن كريم....

نخلص من هذا بأن التجسيم هو إبراز المعنويات المجردة فى أجسام محسوسة وملموسة على العموم والشمول، والإعجاز القرآنى حول هذه المعنويات المجردة إلى حياة فيها حركة وإحساس بعد أن كانت ساكنة باهتة جامدة، وفى ذلك إثارة وجمال وتدبر وتفكر فى كل ما تقع على الحواس فى هذا الوجود.

والصورة: تذكر واع لمدرك حسى سابق كله أو بعضه فى غياب المنبه الأصلى للحاسة المفكرة، ومفهومها فى الفن، فإما أن يخصصها فيعيدها مرادفة للاستعارة، أو يعممها ويتوسع فى نطاق دلالاتها فيعنى بها «التعبير عن تجربة حسية نقلت بطريق البصر أو السمع أو اللمس أو التذوق». (١).

أى أن بعض هذه الحواس أو كلها مجتمعة تدرك عناصر التجربة الخارجية فينقلها الذهن إلى الشعور بطريقة من شأنها أن تثير فى صدق وحيوية الاحساس الأصلى.

والصورة قد تكون حسية بأنواعها التى تقدم ذكرها كتجربة يوسف - عليه السلام - مع امرأة العزيز، والعتاب على إخوته، وقد تكون سيكولوجية أو عقلية فيغلب عليها الطابع التجريدى، كطلب يوسف - عليه السلام - الولاية وكرسى الوزارة (قال: اجعلنى على خزائن الأرض انى حفيظ عليم). «٥٥: يوسف».

وللرمز والإيماء فى القصص القرآنى أثرهما الفعال حينما يراد التلميح لا التصريح الذى لا يجمل فى بعض المواطن فمثلاً: أراد الله - تعالى - أن يعبر عن الغاية من المعاشرة الزوجية (وهى التناسل) رمز إلى ذلك بلفظ (الحرث) فى قوله تعالى:- (نساؤكم حرث لكم، فأتوا حرثكم أنى شئتم). «٢٢٣: البقرة». وأكمل - سبحانه - وصف تلك العلاقة بين الزوجين بما فيها من مخالطة وملابسة والتحام وصفها بأنها لباس من كل منهما للآخر (هن

(١) انظر النقد التحليلى ص٥٧ د. محمد عنانى.

لباس لكم وأنتم لـباس لهن). «١٨٧: البقـرة». ومن هذا الباب فى الإيماء اللطيف والرمزية العـجيبة التـى تعلمنا أدب التعبيـر فى قوله تعالى: (أولامستم النساء). «٤٣: النساء». وقوله تعالى: (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم). «١٨٧: البقـرة». وقوله - سبحانه - (فلما تغـشاها حملت حـملا خفـيفا). «١٨٩: الأعـراف». ففى التعـبير عن اتصـال الرجل بالمرأة بقوله - تعـالى - (فلما تغـشاها) أدب من أدب القـرآن، وإشارة لـطيفـة إلى مـا يكون بين الزوجين، ورمـز إلى اتصال الرجل بـالمرأة، إذ يغشى الرجل المـرأة فيكون لهـا غشاء سـاترا رقيقا، أشبـه بالثوب يلبسه الانسـان، أو أشبه بالليل إذ يغشى النـهار، ويدخل عليه، فـيستـر ما فـيه من كائـنات، ويحجب الأعين عنها.

وإن الوحدة الفنيـة فى الأسلوب القرآنى تدعك أحياناً ترسم فى خيـالك صورة ناطقـة لا تقف عند التـصوير الاسـتعارى أو الـرمز الكنائى، بل تجـاوزه إلى التلـويح والتـعريض ومـثـاله: (وقـالوا: لا تنفروا فى الحـر. قل نار جهنم أشد حراً). «٨١: التـوبة». فالغرض الحقيقى هنا: التعريض بهؤلاء المتـخلفين عن القتال المتعذرين بشدة الحر، بأنهم سيرون جهنم ويجدون حرها الذى لا يوصـف.

قلنا إن الصورة الفنية التى تتخلل التعبير التصويرى ترتبط ارتباطاً وثيقـاً باللغة مـن حيث الألفاظ والـتراكيب، وتـرتبط أيضاً بالخـيال والتخيـيل الحسى والوجدانى، الأمر الذى يؤدى إلى تعـميق الدلالة وتوضيحها، ويصبح المعنى غنياً ومؤثراً فى النفس «إن المادى الحسى

والفكرى الوهمى أو الخيالى يتعانقـان تعانقاً ملحاً فى مجال الدلالة الأدبية، فالدلالة نبـتة عضوية حية مـتميزة من حصـيلة الأقسام التى يمكن أن تتحلل إليـها الصورة التـعبيـرية بجميع أنواعهـا التخيـيلية والتشخيصية والتجسيمية» [١].

وقد نحـا الشهيـد سيد قطب فى دراسـته القرآنيـة منحى أدبياً، إذ توصل إلى أن «التـصـوير هو الأداة المفـضلة فـى أسلوب القـرآن» يقـول: «هذه القـضـية لـدى كل مايؤكـدها من الإحـصـاء الدقـيق لنصـوص القرآن، فالقـصة ومـشاهد القـيامـة، والنماذج الإنسـانية والمنطق الوجدانى فى القرآن، مضافاً إليـها تصوير الحالات النفسية، وتشـخيص المعـانى الذهنيـة، وتمثـيل بعض الوقـائع التى عاصـرت الدعوة المحمـدية.. تؤلف على التقريب أكثـر من ثلاثة أرباع القرآن من ناحيـة الكم، وكلها تسـتخدم طريقـة التصوير فى التـعبيـر، فلا يسـتثنى من هذه الطريقـة إلا مـواضع التـشـريع، وبعض مـواضع الجدل، وقليل من الأغـراض الأخرى التى تقـتضى طريقة التـصوير الذهنى المجـرد، وهى على كل حـال محـصـورة فـيمـا يوازى ربع القرآن» [٢].

هذا التصوير تحدى به القرآن فصحاء العرب بمعارضته، وطاولهم فى المعارضة، حتى انهزموا امـام تحديه، واعلنوا عجزهـم عن تقليده لانه يعلو ولا يعلى عليه، وماهو يقول بشـر، فاذا كان اسلافنا اثاروا

---

(١) الصورة الأدبية : ص٥٦ د. مصطفى ناصف
(٢) التصوير الفنى فى القرآن ص ٢٠٤ سيد قطب

الجوانب البلاغية فى القرآن الكريم الا انهم قد وقفوا عند كل نص على حدة، ولم تسعفهم الابحاث الكلية او الموضوعية فى دارسة الوحدة الفنية الكلية التى لا تنتهى عند مشكلة اللفظ والمعنى بل تتعداهما الى التذوق والى الطريقة الفنية فى العرض، ويكف تتلافى المعانى، وكل معنى يروق لما سبقه ومقدم لما يليه فى تآخ بين جزئياته، وتعانق مع كلياته، والالفاظ مؤتلفة فى نغم يهز النفس، ويثير الفكر ويجيش الوجدان، والخيال والتصوير والانتقال من مجاز إلى مجاز ومن استعارة الى استعارة، وكأننا نقفز فى سمائه من أفق إلى أفق، فنشعر بالبهجة ونحس بالمتعة، إذ نشعر كأننا فى دار خيالة تعرض علينا صورا متتابعة تنفصل بها عن حياتنا الواقعية، فنسكن إليها، ونتخلص من أعباء الحياة وتكاليفها[1]

ويعرب «سيد قطب» عن منهجه فى هذه الدراسة القرآنية مؤكدا «أن التصوير هو الأداة المفضلة فى أسلوب القرآن» فيقول: التصوير هو الاداة المفضلة فى أسلوب القرآن، فهو يعبر بالصورة المحسة المتخيلة عن المعنى الذهنى والحالة النفسية، وعن الحدث المحسوس والمشهد المنظور، وعن النموذج الانسانى، والطبيعة البشرية، ثم يرتقى بالصورة التى يرسمها فيمنحها الحياة، او الحركة المتجددة، فإذا المعنى الذهنى هيئة او حركة، واذا الحالة النفسية لوحة او مشهد، واذا النموذج الإنسانى شاخص حى، واذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية، فأما

(١) المصدر السابق .

الحوادث والمشاهد، والقصص والمناظر، فيردها شاخصة حاضرة، فيها الحياة وفيها الحركة، فإذا أضاف إليها الحوار فقد استوت لها كل عناصر التخييل، فما يكاد يبدأ العرض حتى يحيل المستمعين نظارة، وحتى ينقلهم نقلا إلى مسرح الحوادث الأول، الذى وقعت فيه أو ستقع، حيث تتوالى المناظر، و تتجد الحركات، وينسى المستمع ان هذا كلام يتلى، ومثل يضرب، ويتخيل انه منظر يعرض وحادث يقع، فهذه شخوص تروح على المسرح وتغدو، وهذه سمات الانفعال بشتى الوجدانات، المنبعثة من الموقف، والمتساوية مع الحوادث، وهذه كلمات تتحرك بها الألسنة، فتنم عن الأحاسيس المضمرة، إنها الحياة هنا وليست حكاية الحياة[1].

«ولعل الغاية التى انتهى إليها «سيد قطب» من فهم الاسلوب القرآنى ان تكون اصدق ترجمة لمفهومنا الحديث لإعجاز القرآن لانها تساعد جيلنا الجديد على استرواح الجمال الفنى الخالص فى كتاب الله، وتمكن الدارسين من استخلاص ذلك بأنفسهم، والاستمتاع به بوجدانهم وشعورهم، ولا ريب ان العرب المعاصرين للقرآن قد سحروا قبل كل شئ بأسلوبه الذى حاولوا ان يعارضوه فما استطاعوا، حتى إذا فهموه ادركوا جماله ومس قلوبهم بتأثيره». [2].

---

(١) المصدر السابق : ص٣٢ .

(٢) انظر مباحث فى علوم القرآن ص ٣٢٠ د. صبحى الصالح.

الإيقاع..والموسيقى

إن الكلام - ذا الإيقاع الموسيقى والمتمثل فيه وحدة الوزن ووحدة النظم - ووحدة القافية يشد من أزر المعنى ويثبته، ما فى ذلك شك!! لان هذه الخاصية الفنية لم يخلقها الله - عبثا - فى الإنسان، إنما هى ملكة كسائر الملكات الاخرى تخص الوجدان، فيطرب الإنسان للنغم والتوقيع، ويتأثر بما يسمع، وربما يوحى إليه النغم والايقاع بما لايستطيع القول ان يشرحه «وزعمت الفلاسفة ان النغم فضل يقى من المنطق، لم يقدر اللسان على استخراجه، فأستخرجته الطبيعة بالألحان على الترجيع لا على التقطيع، فلما ظهر عشقته النفس، وحنت إليه الروح، ولذلك قال أفلاطون: لا ينبغى ان نمنع النفس من معاشقة بعضها بعضا، ألا ترى أهل الصناعات كلها إذا خافوا الملالة والفتور على أبدانهم ترنموا بالألحان» (١).

وتمثلت الصياغة الموسيقية والنغمية فى اللفظة والكلمة، والجملة والمقطع والبيت والفقرة، فكما ان التصوير يكون باللون والحركة والصوت والتخييل والتجسيم، يكون أيضا بالنغمة فى جرس الكلمات، وإيقاع العبارات وموسيقى السياق، الامر الذى جعل البلاغيين يصنفون موسيقى الكلام إلى نوعين من الايقاع، ظاهر وخفى: فالظاهر فى وحدة التفعيلية ووحدة الوزن المتمثل فى

---

(١) العقد الفريد ح٣ ص ١٧٧ ابن عبد ربه.

التناسب التام بين الكلمات والأجزاء والحركات والسكنات، بحيث تعشقه الأذن وتسربه النفس، وتهتز له الجوارح فى الإنسان، وأضافوا إلى ذلك نوعا من التقسيم الإيقاعى كالمحسنات البديعية، والازدواج وحسن التقسم واختيار حرف الروى والتصريع فى الأبيات، وتضمينها مختلف الصور البيانية والمقابلات اللفظية والمعنوية.

أما النوع الثانى - وهو الخفى - فنابع من تنسيق العبارات وتخير الألفاظ، وائتلافها وانسجامها ونظمها فى نسق خاص مع الجو النفسى الماثل فى وحدة الأحساسيس والمشاعر، والخطوات النفسية التى تصاحب النصوص، والتناسب فى الانتقال من فكرة إلى فكرة ومن غرض إلى غرض.

هذه هى موسيقى النثر والشعر، والقرآن الكريم ليس شعرا ولا نثرا، وان صح القول: هو نوع من النثر ممتاز مبدع فريد ممتنع، جميل متفرد، «لاهو من سجع الكهان ولا من حكمة السجاع» وانما هو سور وآيات منسقة ومتساوقة يربط بينها فواصل محكمة، غاية فى الدقة، وروابط قوية وخفية (وماعلمناه الشعر، وما ينبغى له، إن هو إلا ذكر وقرآن مبين). «٦٩: يس».

إذن هونثر إيقاعى غير موزون، عباراته مقسمة، متقابلة الأجزاء، وألفاظه مختارة ذات ظلالات وايحاءات، جمع فضائل الشعر والنثر جميعا، وتعبيراته معفاة من قيود القافية الموحدة والتفعيلات الوزنية المتعددة، ومن ثم انطلق التعبير فى حركة كاملة، وبدأ النظم

محتويا دلالاته، على اختلاف مواقعها، شاملا ما يدرس الآن فى علم المعانى من فصل ووصل وتعريف وتنكير، وتقديم وتأخير، وحذف وذكر، وإظهار وإضمار، جامعا مايدرس الآن فى علم المحسنات البديعية من سجع وجناس وطباق وتورية وترصيع، متضمنا صور البيان المختلفة من تشبيهات واستعارات وكنايات ومجازات مرسلة.

ولما كان الإيقاع الموسيقى نوعا من أنواع التصوير الفنى فى القصص القرآنى، ألفينا وحدة النغم تتكرر فى كل آياته، ووجدنا الاتساق الفنى والخيط النفسى بين فقراته ومقاطعه، لذا يحدث التغنى، وتحل النشوة، وتتواجد المتعة، وتسموا الارواح وتفهم المعانى وتتضح الأفكار، وتبين الأغراض، ويسهل الإقناع، ولاسيما عند من يتأثرون عن طريق وجداناتهم، ومشاعرهم وأحاسيسهم المرهفة.

وصياغة اللفظة هى التى تؤثر فى الصورة المجازية التى تحدث النغم والإيقاع، لأن الصورة الموسيقية لا تكتمل إلا بالدقة فى اختبار اللفظ وكأن المعنى مجلوب له وليس العكس، ثم وضعه فى مكانه بحيث لا يصلح إلا هو، وقد عبر عن ذلك ابن الأثير فقال: «أعلم ان العرب كما كانت تعتنى بالألفاظ فتصلحها وتهذبها، فإن المعانى عندها أقوى وأكرم وأشرف قدرا، ولكن عنايتهم بالألفاظ لانها عنوان لهذه المعانى، وطريقها إلى إظهار أغراضها، فأصلحوها وزينوها، وبالغوا فى تحسينها ليكون ذلك اوقع فى النفس، وأذهب

فى الدلالة على القصد، ألا ترى ان الكلام إذا كان مسجوعا، لذ لسامعه فحفظه؟ وإذا لم يكن مسجوعا لم يأنس به أنسه فى حالة السجع، فإذا رأيت العرب قد أصلحوا ألفاظهم وحسنوها، ورققوا حواشيها، وصقلوا أطرافها، فلا تظن ان العناية إذ ذاك، إنما هى بألفاظ فقط، بل هى خدمة منهم للمعانى، ونظير ذلك إبراز صورة الحسناء فى الحلل الموشبة والأثواب المحبرة، فإننا قد نجد من المعانى الفاخرة ما يشوه من حسنه نداءة لفظة وسوء العبارة عنه» (١).

ويرى الجاحظ ان المعانى مطروحة فى الطريق يعرفها الأعجمى والعربى والبدوى وا لقروى والمدنى،. «وانما الشأن فى إقامة الوزن، وتحيز اللفظ، وسهولة المخرج، وكثرة الماء، وصحة الطبع وجودة السبك، فإنما الأدب صياغة وضرب من النسج، وجنس من التصوير»(٢).

وأدباء العربية ونقادها يكادون يجمعون على أن حسن اللفظ فى تباعد مخارج حروفه، لأن الحروف أصوات تجرى من السمع مجرى الألوان من البصر، والألوان المتباعدة إذا جمعت كانت فى المنظر أحسن من الألوان المتقاربة، وجل كلام العرب مبنى على التأليف من الحروف المتباعدة، ولحروف الحلق مزية من القبح إذا تقاربت ومنال اللفظ القبيح فى تقارب مخارج حروفه، حينما سئل

(١) المثل السائر : ص٢١٢ ابن الأثير
(٢) انظر : الحيوان حـ ٢ ص ١٣١ الجاحظ .

الأعرابى عن ناقته فقال: تركتها ترعى الهمخع [1] من الألفاظ التى لها وقع فى السمع حسن تسمية الغصن غصنا او فننا افضل من تسميته عسلوجا.. وهكذا.

ولقد عنى مصطفى صادق الرافعى عناية خاصة بالنظم الموسيقى فى القرآن فقال: «إنه مما لايتعلق به أحد، ولايتفق على ذلك الوجة الذى هو فيه إلا فيه، لترتيب حروفه بإعتبار من أصواتها ومخارجها، ومناسبة بعض ذلك لبعضه مناسبة طبيعية فى الهمس والجهر والشدة والرخاوة، والتفخيم والترقيق، والتفشى والتكرير»[2].

ويمضى الرافعى فى سرد بعض الامثلة ليوضح وجهة نظره فيقول: «ولو تدبرت ألفاظ القرآن فى نظمها لرأيت حركتها الصرفية واللغوية تجرى فى الوضع والتركيب مجرى الحروف أنفسها فيما هى له من أمر الفصاحة، فيهيئ بعضها لبعض، ويساند بعضها بعضا، ولن تجدها إلا مؤتلفة مع أصوات الحروف، مساوية لها فى النظم الموسيقى، حتى إن الحركة ربما كانت ثقيلة فى نفسها لسبب من الأسباب فى الثقل مثلا، فلا تعذب ولاتستساغ، وربما كانت أوكس النصيبين فى حظ الكلام من الحرف والحركة، فإذا هى استعملت فى القرآن رأيت لها شأنا عجيبا، ورأيت أصوات الأحرف والحركات التى قبلها قد امتهدت لها طريقا فى اللسان،

---

(١) نبات ترعاه الابل بالبادية.

(٢) تاريخ آداب العرب ٢/٢٢٥ الرافعى.

واكتنفتها بضروب من النغم الموسيقى، حتى إذا خرجت فيه كانت أعذب شيء وأرقه، وجاءت متمكنة فى موضعها، وكانت لهذا الموضع أولى الحركات بالخفة والروعة.

من ذلك لفظ (النُذرُ) جمع نذير، فإن الضمة ثقيلة فيها لتواليها على النون والذال معا، فضلا عن أن جسأة (١) هذا الحرف ونبوه فى اللسان، وخاصة إذا جاء فاصلة للكلام ذلك مما يكشف عنه ويفصح عن موضع الثقل فيه، ولكنه جاء فى القرآن على العكس وإنتفى في طبيعته من قوله تعالى: (ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر). «٣٦: القمر» فتأمل هذا التركيب، وأنعم وتأمل على تأمله، وتذوق مواقع الحروف، وأجر حركاتها فى حس السمع، وتأمل مواضع القلقة فى دال (لقد) وفى الطاء من (بطشتنا) وهذه الفتحات المتوالية فيما وراء الطاء إلى واو (تماروا) مع الفصل بالمد كأنها تثقيل لخفة التتابع فى الفتحات إذا هى جرت على اللسان، ليكون ثقل الضمة عليه مستخفا بعد، ولتكون هذه الضمة قد أصابت موضعها، كما تكون الأحماض فى الأطعمة» (٢).

مما تقدم نلاحظ أن الرافعى حرص فى دراسته القرآنية على الأصل اللغوى وإعجاز حروفا وألفاظ، وحركات وسكنات، إنه عهد على نفسه الكشف عن أسرار النظم الموسيقى وإيقاعاته وأنغامه، هذا النظم الذى أعجز أرباب الفصاحة والبلاغة وجعلهم

(١) الجُساء : الفلظ والصلابة.

(٢) نفس المصدر ٢٣٩/٢ الرافعى.

يسحرون فيؤمنون أو يسخرون فيهربون، هذا السحر العجيب الذى ألف أمة بعد أن كانت على شفا جرف هار، وأنقذهم بعد أن كانوا على شفا حفرة من النار، وألف بين قلوبهم بعد أن كانوا أعداء.

ويرى الرافعى أن الوحدة الفنية فى القوة والإبداع راجعة إلى روح التركيب التى تنعطف عليه جوانب الكلام الإلهى، وهذه الروح لم تعرف قط فى كلام عربى غير القرآن وبها انفرد نظمه، وخرج مما يطبقه الناس، ولولاها لم يكن بحيث هو، كأنما وضع جملة واحدة، ليس بين أجزائها تفاوت أو تباين، إذ تراه ينظر فى التركيب إلى نظم الكلمة وتأليفها، ثم إلى تأليف هذا النظم فمن هنا تعلق بعضه على بعض، وخرج فى معنى تلك الروح صفة واحدة هى صفة إعجازه فى جملة التركيب كما عرفت، وإن كان فيما وراء ذلك متعدد الوجوه التى يتصرف فيها من أغراض الكلام ومناحى العبارات على جملة ما حصل به من جهات الخطاب، كالقصص والمواعظ والحكم والتعليم وضرب الأمثال إلى نحو مما يدور عليه (١).

وحسبنا من التجريد وتقعيد القواعد وسرد المصطلحات الموسيقية، وكيفية حدوث النغم والإيقاع، ولنطف الآن فى بساتين القرآن من قصص وأمثال وسور وعبر وعظات وآيات وجمل وفقرات، لنقطف منها عمليا وحسبا تلك الثمرات الناضجة، والقطوف الدانية، والأكمال اليانعة، ولنبدأ بعروس القرآن (الرحمن) يقول الله ـ تبارك وتعالى فى مطلع هذه السورة:

---

(١) نفس المصبدر السابق: ٢ ٣٦٠.

● الرحمن.
● علم القرآن.
● خلق الإنسان.
● علمه البيان.

نلاحظ أن الاية الأولى من كلمة واحدة، ثم الثلاث الآخر من كلمتين على هذا المطلع بمثابة مقدمة موسيقية، علوية اللحن، قدسية النغم لا تكاد تتحرك بها الشفاه، وتتصل بها الآذان حتى يتفتق من أكمامها هذا الجلال المهيب، الذى يملأ القلوب مهابة وخشية، ويشبع فى النفوس روحا وانتشاء، ولعل مرد ذلك إلى تناغم الألفاظ، وتجاوب جرسها وجلال المعنى، وصفاء رويها، وتلاحمها وتماسكها دون أن يقوم بينها حرف عطف واحد، إن ما بينها من تآلف وتناسق وتواؤم واتساق يجعلها فى غنى عن ذلك كله.

إن هذه الموسيقى القرآنية موزونة بميزان شديد الحساسية، تميله أخف الحركات والاهتزازات ولو لم يكن شعرا، إنها رتيبة الحركات، وئبدة الخطوات، رقيقة الأصداء، شجية الإيقاع.

ثم تجيء بعد هذا آيتان من ثلاث كلمات:

● الشمس والقمر بحسبان.
● والنجم والشجر يسجدان.

ثم تتلوهما آيتان من أربع كلمات:

● والسماء رفعها ووضع الميزان.
● ألا تطغوا فى الميزان.

ثم تتلوهما آية من ست كلمات:

● وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان.

وهكذا تتراوح الآيات بين ثلاث وأربع وخمس حتى يأتى القرار الذى ينتهى إليه النغم، والذى يتردد بعد كل آية أو ايتين من السورة (فبأى آلاء ربكما تكذبان) فما الحكمة من تكرير قوله تعالى (فبأى آلاء ربكما تكذبان؟) إحدى وثلاثين مرة فى السورة؟؟

لأن المخلوقين اللذين يناط بهما التكليف (الإنس والجن) يقعان تحت حكم المساءلة والحساب والثواب، وإذا كان الله تعالى ــ لا يحاسب غيرهما لأنه يقول ــ تبارك وتعالى ــ :(إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها، وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا). «٧٢: الأحزاب».

وهذا الوجود على تلك الحال التى عليها الجن والإنس نعم جليلة من نعم الله، واضحة ومعدودة ومحصورة فى كل اية، ونعم الله لا تعد ولا تحصى ولعل أعظمها وأجلها نعمة هذا الكتاب التى تصدرت السورة. فكيف يكذبون بآلاء الله ونعمعه؟؟.

«إن لعلماء الموسيقى مجالا فسيحا للدراسة والافادة من هذا النظم الذى تمثل كل آية منه جملة موسيقية، تختلف طولا وقصرا، وتأتلف مطلعا وختاما، إن الموسيقى ــ وهو يتلو هذه الآيات ــ يجد نفسه يتلقى درسا علويا من ينابيع الموسيقى القرآنية، فيستفتح اللحن بكلمة «الرحمن» فيعطيها كل ما يمتلىء به صدره من أنفاس الحياة... ثم يعود فيوزع أنفاسه بين كلمتين، كلمتين، ثم بين ثلاث ثلاث.. ثم بين أربع أربع، ثم بين ست كلمات، هى آخر ما يمكن أن

يمتد إليه النفس غاليا، ثم يعود ليلتقط أنفاسه، فيوزعها بين ثلاث كلمات.. ثم يأخذ نفسه مرة أخرى ليوزعه على خمس كلمات، وهنا يكون النفس قد توازن، وانضبط على حدود معينة، فنلقاه الآية التى ستكرر على امتداد السورة. فبأى الاء ربكما تكذبان). وهى من أربع كلمات إذ هى وسط بين الثلاث والخمس» [1].

«إن المرء ليحار إذا قرأ سورة «الرحمن» فيتساءل: هل انبعث إيقاعها الرخى المنساب من مطلعها أم من ختامها، أم من خلال آياتها؟ وإذا هو يقطع بأن النعم يسرى فيها كلها: فى فاصلها ومقاطعها، وفى ألفاظها وحروفها، وفى انسياقها وانسيابها حتى لو انتقى على حدة مقطعا من مقاطعها، أو من موضوع واحد من موضوعاتها الجزئية، والتمس فى أجزائه النغم والإيقاع لكان فى كل جزء منه نغمة، وفى كل حرف منه لحن من ألحان السماء» [2].

انظر قوله تعالى (خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم، ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم، ذق إنك أنت العزيز الكريم). . «٤٧ ـ ٤٩ : الدخان». إنه يعتل عتلا ويرفع رفعا، ويدع دعا، حث يلقى به فى وسطها ومركز دائرتها ثم يتضاعف عذابه حيث يصب فوق رأسه ذوب جهنم ونضيح عرقها، فالإيقاع الظاهر بين قوله تعالى (خذوه فاعتلوه) وقوله تعالى فى الفاصلة (الجحيم والحميم والكريم) والموسيقى الخفية فى هذا التبكيت وتلك التحايا التى كان

---

(١) انظر التفسير القرآنى للقرآن: ص٦٥٥ وما بعدها حـ ٧. عبدالكريم الخطيب.
(٢) انظر: مباحث في علوم القرآن ص ٣٣٦ د/ صبحى الصالح

يتلقاها فى دنياه من ندمائه وأتباعه (ذق، انك أنت العزيز الكريم) ما أروع جرس الألفاظ وفواصل الايات والخيوط النفسية والتساوق بين الموسيقى الخفية والظاهرة اللتين اخترقتا الحس ونفذت إلى مواطن الإدراك والوجدان، يقول قس بن ساعدة الريادى:

في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارد الموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها يمضى الأكابر والأصاغر
أيقنت أنى لامحالة حيث صار القوم صائر
لا يرجع الماضون لا ولا يبقى من الباقين ناظر

وقوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة؟) «٣٨: التوبة» فلقطة «اثاقلتم» أصلها تثاقلتم وأدغمت التاء وجىء بهمزة الوصل حتى لا يبدأ بحرف ساكن، والتثاقل هو التباطؤ والتحرك فى ثقل، لأن شأن كل ثقيل أن يكون بطىء الحركة، فالموسيقى التصويرية تتيح لخيالنا أن نتصور تلك الأجسام المتثاقلة، كلما أراد الله رفعها إلى الجهاد لتسمو وتعلو، إذ بها تدعى وتتغابى عن الدعوة وسرعان ما تسقط إلى الأرض لتختلط بها وتمتزج بترابها، وهى كناية عما يستولى على الإنسان من مشاعر التحير والانهزام، حين يواجه أمرا عسيرا مثل النفور إلى القتال والجهاد فى سبيل الله. وهذا لا يليق بخلق المسلم وكرامة المؤمن، ونظيره قوله

تعالى: (وإن منكم لمن ليبطئن) فهى إشارة واضحة لجبن الجبناء ونفاق المنافقين حيث يتعللون ويتعذرون حتى يفوتهم ركب المجاهدين، فاللفظة مختارة بجرسها وإيقاعها لنصور الحركة النفسية المصاحبة لهذا التباطؤ والتثاقل والتعثر والتخلف والتقاعد عن الجهاد إننا لا نغالى إذا رددنا أن كل سورة من هذا القرآن إيقاع غنى بالموسيقى مفعم بالنغم، مملوء بالألحان، بل فى كل مقطع وفى كل فقرة، وفى كل آية وفى كل لفظة، وفى كل مطلع وخاتمة، إن الأسلوب القرآنى ــ على حد قول الشهيد سيد قطب ــ جمع بين مزايا النثر والشعر جميعا «فقد أعفى من قيود القافية الموحدة، والتفعيلات التامة، فنال بذلك حرية التعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامة، وأخذ فى الوقت ذاته من الشعر الموسيقى الداخلية، والفواصل المتقاربة ــ فى الوزن ــ التى تغنى عن التفاعل، والتقفية التى تغنى عن القوافى، فشأى النثر والنظم جميعا» (١).

قلنا آنفا: إن اللفظة المفردة فى كل اية من آيات ــ بجرسها ونغمها ــ لها ظلالها وإيحاءاتها، وتستقل بموسيقاها الداخلية أو الخفية، فحين نتسمع همس السين المكررة فى قوله تعالى: فلا أقسم بالخنس، الجوار الكنس، والليل إذا عسعس، والصبح إذا تنفس). «١٥ ــ ١٨ : التكرير». ذلك الهمس الخفى الذى يتناسب وسريان الليل الذى يغشى النهار، بينما حرف السين وتكراره فى قوله تعالى: (قل أعوذ برب الناس، ملك الناس، إله الناس، من شر

---

(١) التصوير الفنى فى القرآن: مراجع سابق ص ٨٦.

الوسواس، الخناس، الذى يوسوس فى صدور الناس من الجنة والناس) يحدث فى النفس وسوسة كاملة تناسب جو وسوسة الوسواس الخناس، فهذا هو الإعجاز الموسيقى، والرتم الإيقاعى مجسد فى اختيار اللفظ ووضعه فى مكانه.

وإذا قرأت قوله تعالى: (وجاءت سكرة الموت بالحق، ذلك ما كنت منه تحيد). «١٩: ق»، وقعت الرهبة فى صدرك، ودب الخوف فى نفسك وأنت لاهثا مكروبا من إنذار صوت الدال المتوعدة المسبوقة بالياء المشبعة المديدة فى لفظة «تحيد».

وقوله تعالى: (فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور). «١٨٥: آل عمران». وقوله تعالى: (وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر). «٩٦: البقرة». إن مشهد الزحزحة والإبعاد والتنحية مفعم بالصوت والحركة، وما يصحب ذلك من حالات نفسية مذعورة إذا تحس بالنار وترى لهيبها وتسمع أزيرها.

وقوله تعالى: (فكبكبوا فيها هم والغاوون، وجنود إبليس أجمعون). «٩٤: الشعراء» إن الكبكبة يحدث جرسها صوت الحركة التى تتم بها وما توحى به من تدهور وسقوط فى هوة، وما توحى به من تصارع هذه الجماعات والأفواج إذ تتناهش كما تتناهش الحيات، وما توحى به أيضا من صراخ عويل، فالوحدة الفنية فى اختيار هذه اللفظة ووضعها فى هذا الموضع الذى لا يصلح فيه سواها والاعجاز فى استغلال هذه اللفظة بتلك الصور والإيقاعات الموسيقية، والكبكية الجماعية.

وقولـه تعالى: (يوم يدعـون الى نار جهنم دعـاً). «١٣: الطور». فالدع هو الدفع العنيف الذى يغلب أن يكون من الخلف، مما يجعل المدعـوع يحدث صـوتا غـير إرادى عنـد دعه، فـهـو بجرسـه وظله يصور مدلوله وايقاعه.

وقوله تعالى: (الحاقة ، ما الحـاقة............. وأما عاد فأهلكوا بريح صرصرٍ عاتية). «١-٦: الحاقة».

تبدأ السورة بتشنيف الآذان بتلك الصيحات الراعدة، والنداءات، والايقاعات المزلزلة، ،الموسيقى المرعبة والأنغام الصافية، الأمر الذى جـعل كل الألسنة تتسـاءل: ما هذا؟ مـا هذا؟ إن الدقات أشـبه مـا تكون بالرعـد، وان الإيقاع أشـبه مـا يكون بالقصف إنه يوم الـفزع ويوم الكرب، ويوم إحقـاق الحق وإبطال الباطل، انه يوم الحـساب، فالعبارة كلها تبرز قيمة اللفظ المصور للفزع، والظل الذى تلقيه كل جملة يتـساوق مع العرض العام، عـرض الرعب والكرب والفزع. ويتناسق مع دقـات الطبـول الضـخـمة المجلجلـة، ويأتلف مع نفخ الأصوار المزعـجة حقا انهـا اللفظة التى أغنت عن وسائل التـصوير الأخرى. حـقا إنها صـياغة هذه المقـاطع ونظمها علـى هذا التنسيق دائرة معـارف موسـيقـية، وبحـار لآلى إيقاعـية، أنفـاسها مـنثورة، وألحانها منضودة، لا تـزال أبد الدهر - منابع غنية لوجدان، ومناهل سكرى للعواطف وأريجا طيبا تعبق منه الأنوف والنفوس.

ومن الموسيـقى الصاخيـة المرعبة ذات الايقـاعات الخارقة صـماخ الآذان، والأنغام الصارخة البالغة حبات القلوب، والصادقة فى نقل

الجو المكـهرب وحالة الـفزع والهلع والعـويل والصراخ، وقـعقـعة السيوف، وضيح الخيول وصلصلة السنابك والدروع، حيث الدماء تراق والقسى تحطم، ويثار الغبار وينقلب النـهار ظلاما فلا ترى فيه إلا لمعان السيوف والحراب وهى تتهادى. كالنجوم كما قال الشاعر:

كأن مثار النقع فوق رؤسنا وأسيافنا ليل تهاوى كواكبه

إنها المعركة الحـامية، والمعمعة الفاصـلة، والحرب المدمرة، إنها فى اللوحـة الموسيـقية الـتاليـة (والعاديات ضـبحا، فـالموريات قـدحا، فـالمغيـرات صبـحا، فـأثرن به نقعـاً ، فوسطن به جـمعـا). «١-٥: العاديات».

هذا الإيقاع الـعجيب والنغم المفـزع، والموسيـقى الصاخـية وهذا التـسلسل فى المعـانى، وذلك التـوافق فى الألفـاظ والانسجـام بين الجمل والفواصل، من شأنه أن يلـمس الوجدان، ويحرك العواطف ويثير الأحاسيس والمشاعـر حينئذ تكتمل الصورة ، ويسهل الاقناع، ويحدث التأثير.

وللقافية أثرها فى الإيقاع الموسيقى إذ أنها تدعم الموسيقى الظاهرة والخفيـة، والقافية فى القرآن الكريم يطلق عليـها الفاصلة أو اللفظة الأخـيـرة من الآية ذات الروى الواحـد وكلمـا تعـددت وطالت أو قصرت تتعدد ألوان الايقاعات والموسيقى، وتبدو الوحدة الموسيقية والإيقاعية فى بعض سور بأكملها وقـد تبدو فى مجموعة من آياتها فمثـلا: عدد آيات سورة «الرحمن» ثمـان وسبعون آية يغلب عـليها روى واحد، هو حرف النون قبلها ألف.

وفى سورة الدخان يقول الله تعالى: (ونعمة كانوا فيها فاكهين، كذلك وأورثناها قوما آخرين، فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين، ولقد نجينا بنى اسرائيل من العذاب المهين، من فرعون إنه كان عاليا من المسرفين، ولقد اخترناهم على علم على العالمين، وآتيناهم من الآيات ما فيه بلاء مبين). «٢٧- ٣٣ : الدخان».

فالقافية هى النون قبلها حرف الياء الممدودة، إذ أن هذه القافية تبدو غالبة فى معظم الآيات والسور، يليها فى العموم والشمول قافية النون قبلها واو ممدودة كما فى قوله تعالى: (هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا، ثم لتبلغوا أشدكم، ثم لتكونوا شيوخا، ومنكم من يتوفى من قبل، ولتبلغوا أجلا مسمى ولعلكم تعقلون، هو الذى يحي ويميت، فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون، الذين كذبوا بالكتاب، وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون، إذ الأغلال فى أعناقهم والسلاسل يسحبون، فى الحميم، ثم فى النار يسجرون، ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون). «٦٧- ٧٣: غافر».

وقد ترد القصة كلها بروى واحد، وقد يرد أكثر من قصة بروى واحد فى سورة واحدة، فمثلا فى سورة مريم، نجد الروى واحدا فى معظم السورة على تعدد قصصها، تلك هى الياء المشددة المشبعة بألف المد، الأمر الذى يحدث ايقاعا هادئا، وموسيقى تصويرية

تنسجم مع الجو العام والسباق القصصى. يقول - تعالى فى مطلع السورة: (ذكر رحمة ربك عبده زكريا، إذ نادى ربه نداء خفيا، قال: رب انى وهن العظم منى، واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا.... إلى قوله تعالى: (فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا).

ثم يتبعها السباق بقصة يحيى - عليه السلام - بنفس الروى (يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا، وحنانا من لندنا وزكاة وكان تقيا، وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا، وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا) ثم تأتى قصة مريم على أثر القصتين السابقتين بنفس الروى وذلك الإعجاز الموسيقى، والرتم الإيقاعى:

(واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا، فاتخذت من دونهم حجابا ، فأرسلنا إليها روحنا، فتمثل لها بشرا سويا، قالت: إنى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا، قال: انما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا، قالت: أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا، قال: كذلك قال ربك هو على هين، ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا...... وهكذا حتى تنتهى قصة مريم، حتى يقول المسيح بن مريم (والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا). «١٦ -٣٣: مريم».

قلنا: إن هناك نوعا من الموسيقى الخفية لا تتمثل فى الفواصل ولا فى الروى ولا فى التعادلية بين جملة واخرى، ولا فى رتم الإيقاع والنغم، وإنما تتمثل فى نسيج اللفظة المفردة، وتركيب الجملة

الواحـدة، وتناسق الكلـمـات فى الجـمل، والتـوفـيق بين الخطوات المتدرجة فى المعانى، والتسلسل المنطقى، والتناسق النفسى الممثل فى الوجدان والعواطف، وخـير مثال لذلك تفـسير الزمخـشرى لسورة الفاتحـة يقول «إن العبد إذا أفـتتح حمد مـولاه الحقيقى بالحـمد عن قلب حاضـر ونفس ذاكرة لما هو فيـه بقوله (الحـمد لله) الدال على اختـصاصه بالحـمد، وأنه حـقيق به، وجد من نـفسه - لا مـحالة - محركا للإقـبال عليه، فإذا انتقل على نحو الافـتتاح الى قوله: (رب العـالمـين) الدال على انه مـالك الـعـالمين، لا يخـرج منـهم شئ عن ملكوته وربوبيتـه، قوى ذلك المحرك، ثم انتقل إلى قـوله: (الرحمن الرحـيم) الدالة على انـه منعم بأنواع النعم، جـلائلهـا ودقـائقـهـا، تضاعـفت قوة ذلك المحـرك، ثم إذا انتقل إلـى خاتمة هذه الصـفات العظام وهى قـوله تعـالى: (مـالك يوم الـدين)الدال على انه مـالك للأمر كلـه يوم الجزاء، تناهت قوتـه وأوجب الإقبال عليـه، وخطابه بتخصيصه بغاية الخضوع والاستعانة فى المهمات (إياك نعبد وإياك نستعين) هذا التسلسل فى الـمعانى، وذلك التوافق فى الجمل، وتلك الرقة فى الألفاظ، والتناسق بين الأحاسيس المتتابعة المنبعثة من تتابع الآيات، كل أولئك يشكل نوعـا من أنواع الموسيـقى الخفـية التى لا تدركها إلا كل نفس ذواقة للموسيـقى، ومن السهل عليها أن تفرق بين إيقاع وإيقاع، ولحن ولحن.

وإن الجو فى فـاتحة الكتاب جو حـمد وثناء وشكر، جو اعـتراف بالربوبيـة الكاملة، جو الخشـوع والذلة لرب العالمين ومن ثـم يتسق

مع هذا الجو تخصص العبادة لله، والتضرع إليه حيث يتسع المجال للدعاء، وتعطر الموسيقى الرتيبة أريج المكان، وتضمخ الأنغام الخفية بالمسك مواضع السجود والشكران.

وهكذا تتجسد الموسيقى التصويرية فى القرآن ظاهرة وباطنة، تبدو فى القواصل والقوافى والتعادل والتوازن بين الآيات، وتلمس فى ائتلاف الحروف واتساق الكلمات، وتشاهد فى التناسق بين الأجزاء واللوحات، والتوافق فى الإيقاع والتنغيمات، وهذا قليل من كثير لا نهاية له في الابداع، وتبارك الله رب العالمين ، ومما يجدر ملاحظته أن كثيرا من العلماء يرفضون لفظة سجعة وأحلوا محلها الفاصلة وسميت الفاصلة فاصلة بين آية واخرى لأنها تقع عند نهاية الآية، والكلام ينفصل عندها «وكل رأس آية فاصلة وليس كل فاصلة رأس آية، فالفاصلة تعم النوعين وتجمع الضربين[1] معنى ذلك ان الفاصلة قد تكون رأس آية فالفاصلة هى النوعين وتجمع الضربين معنى ذلك أن الفاصلة قد تكون رأس آية فالفاصلة هم النوعين وقد لا تكون، لأن رأس كل آية يفصل بينها وبين ما بعدها.

وإذا أتحد الروى فى آخر كل آية سمى سجعا فى اصطلاع علم البديع إلا أنه فى القرآن الكريم يسمى فاصلة، لأن الفواصل من القرآن هى التى تتبع المعانى ولا تكون مقصودة لذاتها، [2] على

(١) انظر البرهان للزركشى ص٣ ، جـ ١

(٢) مباحث فى علوم القرآن ص ١٥٣ ، مناع القطان .

عكس السجع وهو تواطؤ الفاصلتين من النثر على حرف واحد مقصود لذاته، وهذا معنى قول السكاكى «الإسجاع في النثر كالقوافى فى الشعر».

ورد القاضى أبوبكر الباقلانى على من أثبت السجع فى القرآن فقال: «وهذا الذى يزعمونه غير صحيح، ولو كان القرآن سجعا لكان غير خارج عن أساليب كلامهم، ولو كان داخلا فيها لم يقع بذلك إعجاز، ولو جاز أن يقال: هو سجع لجاز لهم أن يقولوا: شعر معجز. وكيف؟؟ والسجع مما كانت كهان العرب تألفه، ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفى الشعر، لأن الكهانة تخالف النبوات بخلاف الشعر، وما توهموا أنه سجع باطل، لأن مجيئه على صورته لا يقتضى كونه هو، لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذى يؤدى بالسجع، وليس كذلك ما اتفق مما هو فى معنى السجع من القرآن، لأن اللفظ وقع فيه تابعا للمعنى، وفرق بين أن ينتظم الكلام فى نفسه بألفاظه التى تؤدى المعنى المقصود فيه، وبين أن يكون المعنى منتظما دون اللفظ»(١)

فالفواصل فى القرآن الكريم يجىء الوزن تابعا للمعانى وليس العكس، فقوله تعالى: (فيها سرر مرفوعة، وأكواب موضوعة) «١٣، ١٤: الغاشية». فاصلة متوازية، نظيره فى دعاء النبى - صلى الله عليه وسلم: «اللهم أنى أدرأ بك فى نحورهم، وأعوز بك فى شرورهم»

(١) ابرهان للزركش ص ٥٨ جـ ١.

وهناك الفاصلة المطرفة كقوله تعالى: (ما لكم لا ترجون لله وقارا وقد خلقكم أطوارا). «١٣ -١٤: نوح». لأن الآيتين مختلفتان وزنا.

وهناك الفاصلة المتوازنة التى تتفق فيها الكلمتان وزنا كقوله تعالى: (ونمارق مصفوفة وزرابى مبثوثة). «١٥ -١٦: الغاشية»

وهناك الفواصل المتساوية القرائن[1] كقوله تعالى (فى سدر مخضود، وطلح منضود، وظل ممدود). «٢٨ -٣٠: الواقعة»

وهناك الفاصلة التى تطول قرينتها الثانية كقوله تعالى: (والنجم إذا هوى، ما ضل صاحبكم وما غوى). «١ - ٢: النجم»

وهناك الفاصلة التى تطول قرينتها الثالثة لقوله تعالى: (خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه). «٣٠ - ٣١: الحاقة» وقد اجتمعت القرينتان الثانية والثالثة فى قوله تعالى: (والعصر. إن الإنسان لفى خسر، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات، وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) «سورة العصر».

وهناك الفواصل القصيرة كقوله تعالى: (والمرسلات عرفا، فالعاصفات عصفا، والناشرات نشرا، فالفارقات فرقا، فالملقيات ذكرا عذرا أونذرا). «١ - ٦: المرسلات»

وهناك الفواصل الطويلة كقوله تعالى: (إذ يريكهم الله فى منامك قليلا ولو أراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر، ولكن الله

(١) التساوى فى القرائن: أن يكون ما فى احدى القرينتين من الألفاظ أو أكثر ما فيها مثل ما يقابله من الأخرى فى الوزن والتقفية.

سلم، إنه عليم بذات الصدور. وإذيريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا، ويقللكم فى أعينهم ليقضى اللـه أمرا كان مفعولا، وإلى الله ترجع الأمور). «٤٣ - ٤٤: الأنفال»

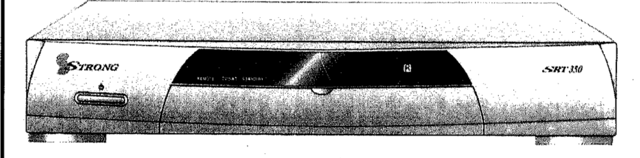
وهناك الفواصل المتوسطة كقوله تعالى: اقتربت الساعة وانشق القمر، وإن يروا آية يعرضوا، ويقولوا: سحر مستمر). «١-٢ :القمر».

محتويات الكتاب

رقم الإيداع ١٨٥٠٥/٢٠٠٠
الترقيم الدولى - ٣١٠ - ٢٣٦ -٩٧٧ ISBN

شركة الاعلانات الشرقية - م دار « الجمهورية » للصحافة


ريسيفر سترونج
لأول مرة
فى مصر


STRONG
SRT 350